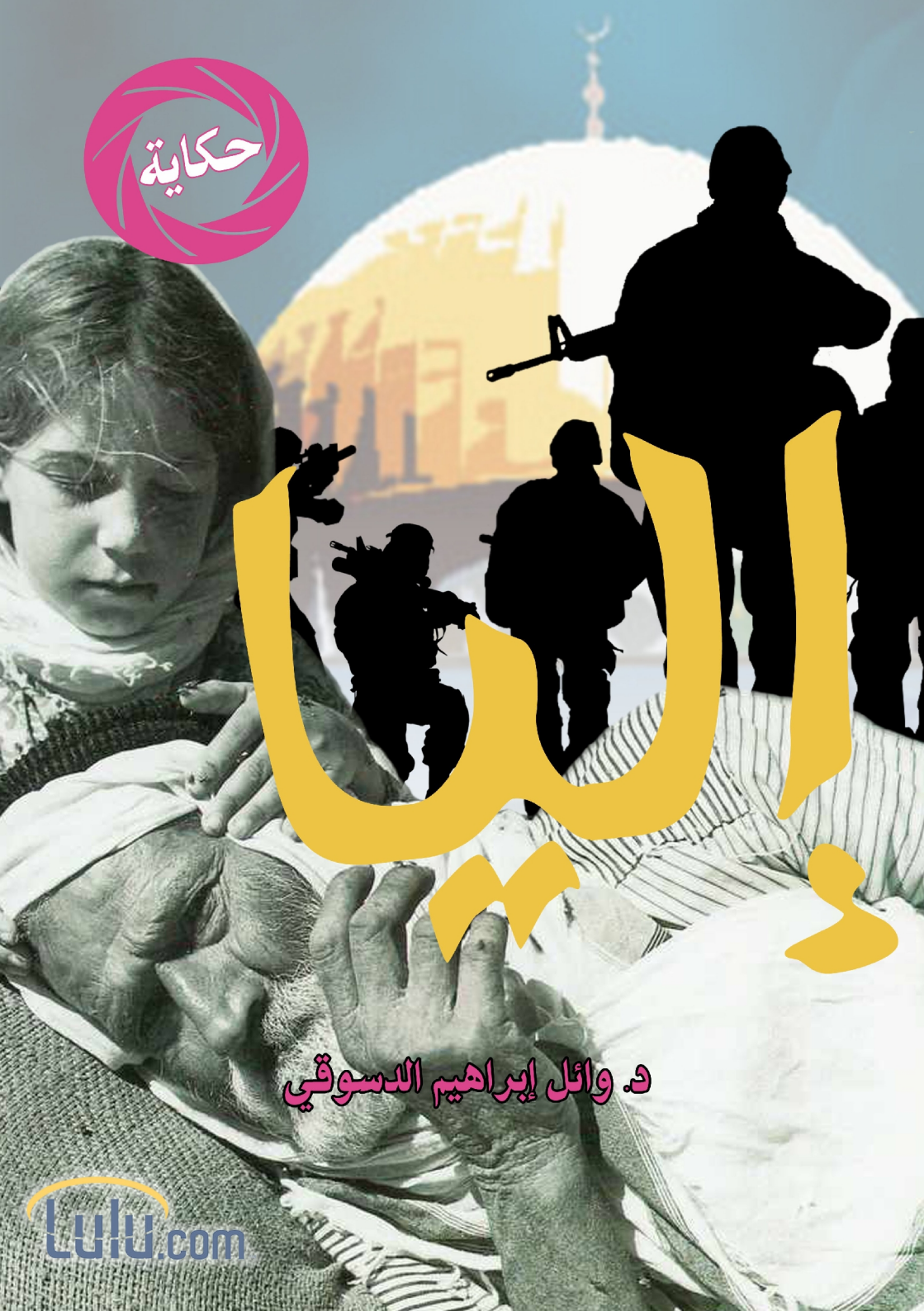
حكاية
إلى
د. وائل إبراهيم الدسوقي
Lulu.com

إليا

حكاية

بقلم

د. وائل إبراهيم الدسوقي

Lulu.com

المؤلف: د. وائل إبراهيم الدسوقي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ويحظر عدم النسخ أو طبع العمل ورقيا أو إعادة نشره إليكترونيا أو تحويله إلى فيلم سينمائي أو عمل تليفزيوني أو إذاعي دون إذن خطي من المؤلف بعد ضمان كافة الحقوق المادية والأدبية. وأي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية سيعرض صاحبه للمسائلة القانونية.

بريد المراسلات: wailedesoky@yahoo.com

رقم إيداع دولي ISBN: 978-1-329-62654-6

الطبعة الأولى / ٢٠١٥

Published by Lulu Press, Inc.

3101 Hillsborough St, Raleigh, NC 27607, USA.
www.lulu.com

Cover Artwork and Design Copyright © 2015 Wael Ibrahim Eldesoky.

أملي

أن تصبح سطور حكايتي

أسطورة تتعلق بها أحلامنا

في عالم حر كريم

(١)

وأهانوا كرامة الزيتون

"كيف صارت المدينة الآمنة خاطئة بعد أن كان يسكنها العدل. أما الآن فإنما فيها القتلة".. كلمات خُطت في الكتاب المقدس. شهادة واضحة على جرمهم. في الواقع هناك قانون حقيقي، منطق يسير وفق طبيعتهم، وهو ينطبق على كل حروبنا التي خضناها معهم. إنه قانون واحد فقط "لا قانون في المعركة".

لا.. فالإنصاف واجب. هناك قانون واحد اتبعوه، الإبادة. نعم، تلك التي يبررونها أحيانا ويتنكرون لها أكثر. يُدينها أصدقائهم عندما يفعلها الآخرون. وإن قتلنا منهم واحدا اعتبرونا إرهابيون.

قالوا عن أنفسهم: نحن شعب الله المختار، بل نحن البشر على الصورة التي تركزت في مخيلة الله. ذكاؤنا متصل في نفوسنا، فذكاؤنا ولد معنا، ولم يكن كذكاء بني البشر. إن كل عبقرية العقل الإنساني كامنة في رؤوسنا. إن الناس جميعا لا يبصرون إلا موضع أقدامهم، أما نحن فنستطيع أن ننفذ إلى المستقبل، ونحكم على الأشياء كما سوف تكون، ولهذا شاءت الطبيعة أن نسود العالم ونستعبده.. العالم بأسره.

في حرب الاستقال الأمريكية، خطب "بنيامين فرانكلين" أحد أبطال الحرب وملهميها في الشعب الأمريكي عام ١٧٨٩، قائلا: هناك خطر جسيم تتعرض له الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الخطر هو الإسرائيليون.. أيها السادة، أينما حل اليهود هبط المستوى الأخلاقي والشرف.

نعم، إنهم اليهود الصهاينة. الذين كانوا ينعمون طوال عصورهم التاريخية في الشرق بالحرية.. لم يُمتهنوا يوماً إلا إذا أجرموا كبقية الرعية.. لم تصادر ممتلكاتهم.. لم تكمم أفواههم.. أما في الغرب فالصورة عكس ذلك.

قرأت كثيراً عن ذلك التضييق الذي كان اليهود يعيشون فيه، وعن تلك الأسوار التي كانت تحيط بمدنهم. لم يسمح لهم أبداً بالسكنى في أحياء الآخرين. كانوا يعيشون دوماً في (جيتو). ومع سقوط الباستيل في الثورة الفرنسية، نادى اليهود بحقوقهم المنسية. فتحطمت أسوارهم ليمتزجوا بالآخرين دون حذر.

حينما قامت الحرب التركية اليونانية في القرن التاسع عشر، بدأ الفكر القومي يطغى على التفكير الغربي. ذلك العامل الأساسي الذي أنتج هذه التحولات السياسية الأوروبية الخطيرة بهذه السرعة الخارقة.. تغلغلت القومية في نفوس الشعوب، تغلغلا جعلها من القوى المؤثرة والمبادئ الفعالة في تكوين الدولة وتوجيه سياساتها الداخلية والخارجية، فتأسست الدول على أساس القوميات، فكل أمة من الأمم تكونت من خليط اجتماعي طبيعي، ذو كيان معنوي خاص.

وبتغلغل هذا الفكر في النفوس، بدأت معه فكرة وطن قومي واحد لبني إسرائيل.. لقد تجدد حلمهم مع ازدياد الوهن في عظام الرجل المريض. الدولة العثمانية التي بدأت تفقد السيطرة على ربوعها. فأرادوا أن يعيدوا تجربتهم القديمة، حينما اغتصبوا الأرض من أهلها عنوة وعاشوا فيها جبرا.

من قديم الأزل، والرحمة أبعد شيء عن أخلاقهم. كان الذبح المنظم يعقب كل غزو يهودي. كان الأهالي الأصليون يوثقون ويحكم عليهم بالقتل من غير نظر

إلى الجنس أو السن. وأصبح الحرق والسلب يلازمان سفك الدماء. ومزاجهم النفسي أقرب إلى أشد الوحوش بدائية على الدوام.

ترك اليهود جميع وصايا الرب، وصنعوا له عجلين من المسبوكات. وأقاموا غابا وسجدوا جميعا جند السماء، عبدوا البعل وأجازوا بنيهم وبناتهم في النار، وتعاطوا العرافة والفأل، باعوا أنفسهم لعمل الشر في عيني الرب لأجل إسخاطه، فغضب عليهم ونفاهم من وجهه. ولم يبق إلا سبط يهوذا، لكنه لم يحفظ وصايا الرب وسلك في سنن إسرائيل التي سنوها، فرذل الله جميع ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم إلى أيدي الناهبين حتى نبذهم من وجهه، وأوقعهم في إثم عظيم..

خاطبهم نبي الله "حزقيل" قائلا:

-في جميع أرجاسك وفواحشك لم تذكري أيام صباك. وإذ كنت لم تشبعي زنيت مع بني آشور ولم تشبعي. فلذلك أقضي عليك بما يقضى على الفاسقات وسفاكات الدماء. وأجعلك تقتلين حنقاً وغيرة...

وحتى بعد أن تركوا الأرض المقدسة وتشردوا في البلاد، تعصبوا وأغلقوا على أنفسهم الأبواب. ولم يتعلموا من دروس الماضي شيء. وتجدد حلم العودة ليعيدوا معه حبهم لسفك الدماء واستحلال أرض الغير وأعراضهم. وتبلورت الأفكار الصهيونية التي كانت تعيش وتنمو نتيجة ربط اليهودية بالمملكة العبرية القديمة في فلسطين، قبل أن تظهر كحركة خلال القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من إعطائهم فرصة للاندماج والمساواة والتحرر من وحشيتهم وعنصريتهم خلال الحركات القومية التي غزت أوروبا مع بدايات القرن التاسع عشر، إلا أنهم كانوا أكبر عقبة أمام حريتهم، حينما تصوروا أن

الاندماج مع الأديان والشعوب سوف يقضي على طموحاتهم وأحلامهم، فما تحمله تلك الحركات من أفكار مكروه لدى اليهود إلى وقتنا الـــراهن، وقـــد أعلن رئيسهم "ناحوم جولدمان" يوما أن "إقامة دولة يهودية هدفـــه حفـــظ الشعب اليهودي من خطر التحرر والاندماج"..

❁❁❁

كم كنت أتمنى أن يكون العالم بدونهم، وأن كل ما حدث لم يحدث. ينشـــغل ذهني دائما بذلك وأنا أتجول بين لوحات قاعة الفنـــون في المتحـــف الحـــربي بالقدس. إن كل لوحة فيها تروي حكاية. هـــذه تـــروي حكايتنـــا، وتلـــك حكايتهم. آلام وصدامات وأفراح وأتراح. يمكنني أن أروي لكم كل ما أراه. فاللوحات تتكلم وتروي عن نفسها الكثير..

أنا سعيد جدا. إن تاريخ أمتي كله أمام ناظري. عندما أتزوج أستطيع أن آتي إلى هنا مع أولادي لأروي لهم كم دفع أهل أمتنا ثمنا لحريتهم.

بينما كنت أتأمل إحدى اللوحات جاء رجل ووقف إلى جواري يتأملها منبهرا شارد الذهن. كانت لوحة رائعة. يظهر فيها شيخ كهل يشير إلى قوم يعبدون صنما مشروخاً لا حول له ولا قوة. مكتوب على دليلـــها المثبـــت أســـفلها (إلياس.. النبي الحزين). ما حكاية هذا الشيخ؟ ولماذا حزن نبي الله "إليـــاس"؟ وقفنا نتأمل اللوحة كثيراً يداعبنا الخيال...

❁❁❁

(٢)
أتدعون بعلاً !

يا أورشليم، يا أوشليم، يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليها، كما مرة أردت أن أجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا، هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا... "المسيح"

في زمان ليس بزماننا.. وفي حال أسوأ من حالنا.. كان النـــاس يتهامســـون ويهرولون في كل اتجاه.. يصيحون.. يهمهمون.. يعتـــدون علـــى بعضـــهم البعض.. ويستحلون ما ليس لهم.. وقد ازداد الأمر سوءا كثيرا حينما قـــبض الله تعالى روح نبيه "حزقيل" عليه السلام فعظمت الأحداث في بني إسرائيل.. وظهر

فيهم الفساد ونسوا عهد الله إليهم في التوراة.. ونصبوا الأصنام وعبدوها من دون الله.. فبعث الله فيهم "إلياس" عليه السلام نبيا يجدد ما أنزله الله على نبيه موسى عليه السلام..

كان سبط "إلياس" عليه السلام يسكن بعلبك ونواحيها. إن ملكهم "لاجب" قد ضل وأضل قومه، وأجبرهم على عبادة "بعل" بمساعدة زوجته "أربيل". فجعل نبي الله يدعوهم إلى عبادة الله تعالي وهم لا يستجيبون لدعوته.. فنادى في قومه: يا قومي.. ألا تتقون.. أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين.. الله ربكم ورب آبائكم الأولين...

وحينما لم يجد "إلياس" استجابة من قومه.. ذهب إلى الملك "لاجب" يدعوه إلى عبادة الله الواحد، فصدقه وآمن بدعوته. وأصبح نبينا مرشده منذ ذلك الحين، ولكن دوام الحال من المحال.

وفي يوم من الأيام سافر الملك "لاجب" وجعل امرأته تنوب عنه في حكم البلاد. وأثناء غيابه طمعت في حديقة كان يملكها "مزدكي" صديق الملك، وحاولت أن تجعله يمنحها إياها إلا أنه رفض. فدبرت بعض شهود الزور، ليشهدوا أمامها بأنه سب الملك في غيابه وتطاول عليه. وبالفعل حدث ما خططت له وأمرت بقتله. وحينما عاد الملك غضب لمقتل صديقه، ولكن سرعان ما أقنعته امرأته بألا يغضب، وأن عليهما الاستمتاع بالحديقة. كان جمال "أربيل" قد أعمى الملك عن حقيقة الجرم الذي فعلته امرأته، فبعث الله تعالى نبيه إلى الملك وقومه..

وفي حضرة الملك، قال "إلياس": إن الله تعالى غضب عليكما حين قتلتما وليكما ظلماً. وإن لم تتوبا وتردا الحديقة لأهله، فإن الله غاضب لا محالة..

وحينما سمع الملك تهديد نبي الله عنفه، اشتد عليه قائلا:

- يا إلياس.. والله ما أرى ما تدعونا إليه إلا باطلاً. والله ما أرى ملكاً عبد الأصنام إلا على مثل ما نحن عليه. يأكلون ويشربون ويتمتعون مملكين ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل شيء. وما نرى لكم علينا من فضل.

لما سمع نبي الله حديث الملك انصرف يائسا، ولحق بشواهق الجبال بعد أن عاد "لاجب" إلى عبادة بعل مرة أخرى. سكن النبي مغارا، وحيداً شريداً خائفاً، يأكل من نبات الأرض وثمار الشجر. ولما تم له سبع سنين أذن الله تعالى له بالنزول إليهم مرة أخرى.

أما "لاجب" فقد كان مشغولاً عن نبي الله إلياس عليه السلام بابنه المريض. وحينما اشتد المرض على ابنه وقف أمام تمثال بعل يدعوه. وكان الشيطان فيما قبل يتمثل به ويتحدث إلى كهنته ويمليهم شريعة ضالة. ولكن هذه المرة منع الله تعالى بقدرته ولوج الشيطان لتمثال بعل. وهكذا، لم يجب الصنم طلب الملك.. كان الملك مذعورا. ابنه يموت أمام عينيه وبعله لا يتفوه ولم يُجب دعواته. فصاح مذعورا: اجمعوا ليَّ كل الكهنة...

وحينما حضروا صاح فيهم (وكانوا أربعمائة):

- اذهبوا واشفعوا لي عند آلهة الشام لشفاء ولدي، فهو لا يزداد كل يوم إلا ألما وجهدا عظيما. لأي شيء غضب عليَّ بعلاً وأنا أطيعه ولم أسخطه ساعة قط؟

فأجابه أحدهم: من أجل أنك لم تقتل إلياس يا مولاي..

- وكيف لي بقتله وأنا مشغول بولدي، وليس لإلياس مطلب، ولا يعرف له موضع، فلو عوفي ابني تفرغت لطلبه وأقتله وأريح منه إلهي.

انطلق الكهنة إلى مقاصد الشام ودعوا الآلهة، لكن الله تعالى منع الشيطان من الولوج إلى تماثيلهم. فلم يسمع الكهنة من الآلهة إلا الصمت، وعادوا خائبي الأمل والرجاء. ولما علم الملك بما حدث، كان مصابه عظيماً. فابنه يعاني أشد الألم، والكهنة يضغطون عليه ليقتل إلياس. وحينما يأس، أمرهم بالخروج إلى الجبل، واستدراج نبي الله بأية طريقة. حتى إذا كانوا بحيال الجبل أوحى الله إلى نبيه أن يهبط بلا خوف فهو صارف عنه شرهم، فنزل من الجبل واستوقفهم:

- إن الله تعالى أرسلني فاسمعوني. ارجعوا إلى ملككم وأبلغوه أن الله يحذره. إذا لم يترك عبادة الأصنام ويعود إلى رشده سوف يكدره ويميت ولده ويقضي على ملكه.

فلما سمع الكهنة هذا الحديث عادوا مذعورين إلى الملك.. أخبروه بأن الرجل انحط عليهم من الجبل، وأن مرآه قذف الرعب في قلوبهم. فلما سمع لاجب منهم، أمر خمسين رجلا من قومه بالذهاب إلى إلياس وخداعه بإيمانهم، حتى إذا آتاهم تمكنوا منه وقتلوه. وسرعان ما انطلقوا حتى ارتقوا الجبل وهم ينادون:

- يا نبي الله.. ابرز لنا وأشرف علينا بنفسك. إنا قد آمنا بك وصدقناك. وملكنا وجميع قومنا مقرون، ويقرأون عليك السلام. هلم إلينا. أنت نبينا ورسول ربنا فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا.

ولما سمع نبي الله عليه السلام كلامهم همَّ بالنزول إليهم، لكنه دعى ربه أن يعلمه بنواياهم تجاهه: "اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم أجمعين".

وما أن استتم نبي الله دعائه حتى نزلت من السماء حجارة من نـــار جهـــنم. فأحرقوا جميعا.. ولما سمع "لاجب" ما حدث للرجال أمـــر رجـــال آخـــرون بالذهاب وتكرار خداعهم لنبي الله ﷺ.. وتكرر فيهم ما حدث للأولـــين.. وأحرقوا عن آخرهم..

واشتد المرض على ابن الملك، لكنه صمم على عزمه بهلاك نبي الله، فأرســـل إليه هذه المرة كاتب البلاط، وكان يعلم بإيمانه وعدم عبادتـــه لبعـــل. لكنـــه أغمض عينه عنه لاحتياجه له ولتزاهته. وارتقى الرجل الجبل وهو ينادى على نبي الله، الذي عرف صوته فتاقت نفسه إليه..

- ما الخبر أيها الرجل المؤمن الطيب ؟!

- يا نبي الله.. إنه قد بعثني هذا الطاغي وقومه. وإني أخاف إن عدت إليـــه ولست معي أن يقتلني فأمرني بما شئت. إن شئت بقيت معك، وإن شئت رجعت إليه وأبلغته رسالتك وألقى مصيري.

فأوحى الله إلى نبيه أن يذهب إلى الملك، وأنه سينجيه. وحينما وصل إلى بلاط الملك، جعل الله ابنه يصرخ ألما حتى مات، فانصرف الملك إلى ابنه. وأوحـــى الله لنبيه بأن يخرج من القصر أثناء انشغال الملك. وما أن فرغ لاجب من أمر ولده وعاد إلى إلياس لم يجده، وسأل عنه فأجابوه بأنه هرب أثنـــاء انشـــغاله بمصابه..

عاد نبي الله إلى الجبل حزينا مكسورا مما يفعله بني إسرائيل الذين تركـــوا الله وعبدوا بعلا. وجعل يدعوا الله ليل نهار: "فإن لم تمتني يا إلهي فاثأر لي من بـــني إسرائيل".. وحينما سمع الله تعالى دعاء نبيه أوحى له بأن يطلـــب أي شـــيء ليعطيه إياه. فطلب إلياس أن يمكنه الله من خزائن السماء سبع سنين فلا تقوم

سحابة ولا تنبت أرض إلا بدعوته. ولكن الله أشفق على عباده وسمح له بثلاث، فهو أرحم بخلقه وإن كانوا ظالمين. وسخر لنبي الله جيشا من الطير لينقلوا إليه طعامه. وهكذا، ولمدة ثلاث سنين أمسك الله المطر عن بني إسرائيل، حتى هلكت المواشي والدواب والهوام والشجر..

وحينما رأى نبي الله ما حل بهم، قال لهم:

- إنكم قد هلكتم وهلكت الدواب بخطاياكم، فإن أحببتم أن تعلموا أن الله ساخط عليكم بفعلكم، وأن الذي أدعوكم إليه هو الحق، فاخرجوا بأصنامكم وادعوها، فان استجابت لكم فذلك الحق كما تقولون، وإن لم تفعل، علمتم أنكم على باطل فنزعتم ودعوت الله ففرّج عنكم..

فأجابوه: أنصفت... وخرجوا بأصنامهم فدعوها فلم يستجب لهم ولم يفرح عنهم، فقالوا لإلياس: إنا قد هلكنا فادع الله لنا..

دعا نبي الله لهم بالفرج، فإذا بسحابة تظهر في السماء وعظمت وهم ينظرون، ثم أرسل الله منها المطر فحييت بلادهم، وفرج الله عنهم ما كانوا فيه من البلاء، ولكنهم لم ينزعوا ولم يراجعوا الحق. فلما رأى إلياس ذلك سأل الله أن يقبضه فيريحه منهم، فأجابه الله، وسلط على قوم إسرائيل عدواً ظفر بهم وقتل ملكهم..

(٣)
ينهشون بأسنانهم وينادون "سلام"

داخل قاعة الفنون بالمتحف الحربي بالقدس.. تحركت من أمام لوحة نبي الله إلياس لأشاهد غيرها، وأنا أتعجب من قوة احتماله وصبره. إن قصته قد آلمتنى كثيرا.. استوقفتني لوحة أخرى لفتت انتباهي كثيرا.. ما هذه اللوحة؟ مكتوب أسفلها "هرتسل – فيينا في عام ١٨٩٧ بالمؤتمر الصهيوني ببازل".. يحيط بعض الصحفيين فيها بشخص ذو لحية طويلة جاد الملامح جريء، عيناه تنظران للجميع بكل ثقة.. أعرف هذا الرجل، وأعلم مدى دهائه وحنكته. قرأت كثيرا عنه، وأذكر أنه لم يتوقف حينما بادره أحد الصحافيين بسؤال..

- سيدي.. ما توقعاتك لما سيحدث مستقبلا بشأن قضيتكم؟!

- كما قلت بالداخل.. لقد نشأت اليوم الدولة اليهودية، ولعلها في خلال خمسة أعوام تكون أملاً، لكنها في خلال خمسين عاماً سوف تكون يقيناً ويشهدها الكافة. لقد وضعنا هنا حجر الأساس في بناء بيت سيأوي أمتنا التي طالما حلمت بذلك..

أنهى هرتسل تصريحه وترك الصحافيين خلفه، ليهبط الدرج مسرعا في خطى ثابتة رشيقة واثقة..

أثارت تلك اللوحة الشجن في نفسي. شعرت بحسرة يصعب وصفها. فذلك الحدث لا يمكن محوه من ذاكرة أمتنا، فمن جراءه أن أهينت كرامتنا وتوالت أحداث التاريخ تقهر فينا، وصارت مدينتنا غير آمنة بعد أن كانت مملوءة بالعدل، تحتوي بيت الرب الذي حاولوا هدمه وإفساده، فأصبحت المدينة من

حوله مملوءة بقتلة سفاحين. لقد رويت حدائق الزيتون بدماء آلاف الشهداء، في معاركهم لصون كرامتنا..

عشرات السنين تشق صرخات فلسطين الحناجر، تدعو الجميع إلى الاستيقاظ لمقاومة هذا البلاء. إن أرواح الشهداء التي صعدت إلى بارئها، والدماء العزيزة التي سفكت فوق أرض فلسطين الطاهرة، والجراح الثخينة ونفوس اللاجئين التي شردت من ديارها، وقاست الأهوال وتجرعت كؤوس الذل والهوان.

كل أولئك.. صرخوا بأعلى صوتهم أن هبوا من نومكم، فالأمر جد خطير، اتحدوا لتنزل أيديكم كالصاعقة على إسرائيل، فتسحقها وتقضي عليها قبل أن يستفحل الداء ويستعصي الدواء.

❁❁❁

آه.. لقد أرهقت كثيراً من تلك الجولة.. سأذهب لأريح قدمي قليلاً على تلك المقاعد في الحديقة، وأنتظر جدي الذي وعدته أن أحتفل معه اليوم بعيد ميلاده، والذي تعودنا فيه أن أرافقه في كل عام لمكان يختاره هو، لكي نحتفل سويا. ولكني تعجبت كثيراً هذه المرة، لماذا اختار المتحف الحربي لنحتفل فيه هذا العام؟!

"وبعد مرور بعض الوقت"...

من الواضح أن جدي سيتأخر، سأذهب لأشاهد المتحف، فتلك اللوحات التي تصطف فيه إلى جوار بعضها تجذبني لكي اتأملها أكثر من مرة. إنها تصور جرح عميق في وجداني، على الرغم من أنني لم أعش تلك الأيام، لكني أشعر بها وأصرخ من داخلي غضبا من صمت أجدادي..

ياه.. إنني أتحدث إلى نفسي كثيرا، سأكف عن هذا العبث وأستكمل جـــولتي حتى يصل جدي. هناك لوحات عديدة أخشى ألا أراها قبل أن يغلق المتحف أبوابه. كلما نظرت إلى إحداها تبهرني أكثر، حتى أن عيني تتيه في التفاصـــيل، وأبدو وكأنني أمتزج معها وأصبح جزءا منها، لتعود بي إلى الماضي..

ما هذه اللوحة ؟ لندن !! إنه قصر عتيق لكنه جميل. ما كل تلـــك التماثيـــل الأثرية التي تصطف أمامه. لقد أبدع الرسام فيها. أشعر أنها حية..

❁❁❁

لندن .. في أواخر أيام القرن التاسع عشر .. مشهد معتاد في شتاء مدينة الضباب. في جو بارد تتساقط فيه حبات الثلج التي يتناغم صوت تلامسها بالأرض مع أصوات الرعد وأضواء البرق، لتعزف سيمفونية الشتاء الأوروبي الخلابة. شقت عربة يجرها زوج من الخيول الأوروبية الجرمانية الضخمة طريقها وسط سحب الضباب الكثيف. طلَّ من شرفتها رجل يلتقاط أنفاسه بصعوبة وسط هذا الضباب الذي يجعل الهواء ثقيلا.

وعلى الرغم من أن الرؤية ضعيفة لكنه صمم على التدقيق بالنظر حوله حتى لا تفوته مشاهدة تلك التماثيل التي تمثل مختلف العصور التاريخية، وقد كانت القطع الأثرية المصرية منتشرة بكثرة، لتعكس بدورها ذلك الهوس والولع بمصر وحضارتها الذي كانت تتسم به الأوساط الغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد اصطفت إلى جانبي الطريق، فكان المشهد وكأن العربة تشق طريق الكباش أمام معبد الكرنك. لكن الفارق أن الطريق هنا يضم خليطاً من التماثيل في عصور مختلفة..

كان ذلك المشهد داخل طريق يشق حديقة أحد القصور الإنجليزية، وكأن العربة تتوجه إلى أحد المتاحف. وما أن انتهى حتى أمر الراكب سائق العربة أن: "توقف هنا".. فأسرع بدوره بالتوقف أمام باب القصر، ونزل منها شاب أنيق طليق اللحية. بدأ في صعود السلالم بكل ثقة وثبات.

وحينما وصل الشاب إلى الباب، كان في استقباله رجل بدين، أصلع، متوسط الطول، يرتدي ملابس أرستقراطية بالغة الأناقة، وصحبه إلى طاولة اجتماعات فخمة في بهو القصر، يحيط بها نماذج من حيوانات برية محنطة ومرصوصة بعناية. وبترحاب مبالغ فيه، قدمه إلى المجتمعين بصوته الغليظ القوي، بإنجليزية بريطانية فصيحة..

- إنه الدكتور هرتسل. بالطبع تسمعون عنه كثيرا هذه الأيام. (ويوجه حديثه إلى هرتسل) عزيزي الدكتور "هرتسل".. كيف حالك ؟

- بخير يا صديقي "روتشيلد".. كيف حالك أنت أيها اللورد؟

- أنا بخير.. ما الأمر ؟!! أي ريح طيبة أتت بك إلينا ؟

- اعتقد أن الحديث بيننا يجب أن يكون على انفراد.

أشار مضيفه إليه لكي يذهبا إلى طاولة الاجتماعات في طرف القاعة. جلس "هرتسل" وفي مواجهته اللورد "ليونيل روتشيلد". سليل عائلة روتشيلد العريقة، وأخذا يتهامسان في أمر يظهر أنه جد خطير..

كان "ليونيل" هو المسئول عن فروع عائلته في انجلترا، وهي عائلة مصرفية يهودية، أصلها من مدينة فرانكفورت الألمانية، تضخمت ثروته حتى أصبح قوة ضاغطة على السياسة البريطانية في القرن التاسع عشر، تضرب جذورها

في اقتصاد العالم وتؤثر في سياساته، وكان أول عضو يهودي في البرلمان الإنجليزي، وزعيم الطائفة اليهودية الإنجليزية.

مال هرتسل برأسه نحوه قائلا بصوت خفيض:

- أود أن أطلب من الحكومة البريطانية ميثاقاً للاستعمار..

- لا تقل ميثاق. إن الكلمة لها وقع سيء الآن..

- سمها ما شئت. نريد أن نؤسس مستعمرة بريطانية في مكان يسيطر عليه التاج البريطاني..

يفكر "ليونيل" قليلا ثم يقف ويعطي ظهره لهرتسل الذي بقى جالسا ينتظر الرد. وبعد برهة التفت "ليونيل" برأسه التفاتة خفيفة للخلف، وقال:

- فلنطلب أوغندا..

يشيح "هرتسل" بوجهه بعدم رضا، ويشير بيديه نفيا: لا.. لا.. لا نريدها..

ولما كان هناك آخرين في القاعة، فقد نظر إليه "هرتسل" ثم كتب رغبته على ورقة ومررها إلى اللورد، الذي ذهب إلى المنضدة وأخذها ليقرأ فيها "سيناء – فلسطين المصرية – قبرص"..

- أتوافق على هذا أيها اللورد ؟

جلس اللورد وأجابه، وقد لمعت عيناه: "جداً" ..

وبالطبع كان "هرتسل" يتمنى تلك الإجابة، فأردف قائلاً بحماس:

- ماذا سنفعل؟ هل يمكنك أن تمنع عن السلطان العثماني أية إمدادات مالية أيها اللورد..

- فعلنا ذلك مع رومانيا. لكني لا أستطيع عمل نفس الشيء مع السلطان. إن القوى الكبرى تريده. هم يريدون بناء السكك الحديدية الآن ويخطبون وده.

حينما سمع "هرتسل" رد اللورد، صمت قليلا، ثم أردف قائلاً:

- لقد عرض عليَّ السلطان العراق..

سأله اللورد مندهشا: ورفضت ؟!!..

أجابه "هرتسل": نعم للأسف..

عقد اللورد حاجبيه ونظر إلى "هرتسل" نظرة يشوبها عدم الرضا عن رفض "هرتسل" للعراق، ثم ارتكز إلى مقعده وأجابه في شرود: سنرى..

كانت عائلة روتشيلد في البداية رافضة للصهيونية السياسية، مثلها مثل غيرها من عائلات أثرياء اليهود المندمجين في المجتمع البريطاني، بسبب تخوفهم مما قد تثيره من ازدواج في الولاء، وهو ما يشكل تهديداً لمكانتهم ووضعهم الاجتماعي. لكن هذا الموقف تبدل فيما بعد، حيث تبين أن وجود كيان صهيوني استيطاني في المشرق العربي يخدم مصالح الأسرة ومصالح الإمبراطورية البريطانية.

❁❁❁

في بلاط البابا بالفاتيكان ، ٢٥ يناير ١٩٠٤.. يمشي هرتسل واثق الخطى في أحد شوارع الفاتيكان السبعين، مارا في طريقه بكاتدرائية القديس بطرس أكبر الكنائس في العالم، دون أن يلتفت لها أو يعيرها أي اهتمام، بالرغم من أن مرافقه يحاول طوال الوقت لفت نظره إلى معالم المكان، إلا أنه كان يتململ

من حين لآخر ويزمجر ضاغطا على أسنانه قائلا "أعرف، أعرف". حتى وصلا إلى القصر الرسولي الذي يشتمل على عدة مباني منفصلة تغطي سكن البابا وقاعة الاجتماعات الرئيسية، ومقرات عدد من المجامع إلى جانب مكتبة الفاتيكان والمتاحف ثم الأرشيف. وما أن وصلا إلى قاعة الاجتماعات الرسمية حتى سلمه مرافقه إلى آخر أكثر وقارا، والذي حياه بانحناءة خفيفة، وأشار له بطريقة مهذبة أن يرافقه إلى البابا.

يستقبل البابا "بيوس العاشر" الدكتور "هرتسل" ويمد إليه يده بالسلام، وكان من الأمور المتبعة أن ينحني الضيف لتقبيل يد البابا، إلا أن هرتسل مد يده بالتحية دون انحناء. نظر إليه البابا نظرة تدل على أن هذا التصرف استفزه كثيرا، وكاد يلومه إلا أن الأخير قاطعه وبادره بالحديث..

- قداسة البابا.. نريد أن نستوطن فلسطين. ما رأيك ؟

- فلسطين ؟!! أتمزح معي ؟ لا.. لا نقبل ذلك يا بني. ولكننا لن نعترض على ذهاب اليهود إلى القدس، واعلم جيدا أننا لا نرضى بذلك رسميا.

- ولم يا قداسة البابا، ألسنا رعايا الرب مثلكم ؟!

نظر إليه البابا بإمعان. ثم أردف قائلا:

- الرب !! إن تراب القدس قدسته قدم المسيح التي وطأته، وكرئيس للكنيسة لا أستطيع أن أعطيك اعترافا أبدا، فلم يعترف اليهود بالمسيح، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي.

- ولكننا سنخرج القدس من مشروعنا يا قداسة البابا. ستخرج تماما عن نطاق حكم الدولة، ولن نتعرض يوما للأماكن المقدسة. هذا وعد.

رمق البابا هرتسل بنظرة غاضبة، وقال له بانزعاج وصوت حاد:

- يجب ألا تكون القدس بأيدي اليهود.

- ولكن.. ما حالتها الراهنة يا قداسة البابا؟ (هرتسل مترعجا متعجبا).

حينما سمع البابا ذلك ارتفعت نبرات صوته بضيق شديد، كما لو كان يتمنى أن تنتهي المقابلة سريعا، وأشار بأصبعه لهرتسل، قائلا:

- أعرف ذلك جيداً (وصمت قليلا ثم استطرد) كونها في حوزة الأتراك لـه وقع سيء علينا. ولكن ذلك نتحمله، ولا يمكن أبداً أن نقـدم دعمنـا لليهود لكي يستولوا على الأماكن المقدسة..

- قداسة البابا... لا غاية دينية لدينا، إن هدفنا تخفيف آلام اليهود فقط.

- نعم.. ولكنني وبموجب سلطتي الكنسية، لا يمكن أن أقبل بذلك. كيـف نعترف بكم وأنتم تعلمون جيدا أن ديانتكم ألغيت بتعاليم المسيح. وعلى الرغم من اعترافنا بأن اليهودية هي ديانـة أجـدادنا، إلا أن اليهـود لم يعترفوا يوما بنا..

- ربما يا قداسة البابا كنا نحتاج إلى وسيلة أفضل للتنوير. لقد كنا نتعـرض للاضطهاد والتخويف دائما.. نريد كلمتك.. الآن.

- أصمت يا هرتسل. إلهنا جاء بلا قوة. كان فقيرا مسالما. لم يضطهد أحـد، وتم إيذاءه وتخلى عنه تلاميذه. ومرت ثلاثة قرون حتى تأسست الكنيسة ونمت. كان هناك وقت لكي يعترف اليهود بالمسـيح بـدون ضـغوط، لكنكم (وتعلو نبرات صوته بشكل حاد ومفاجئ) لم تعترفـوا بـه حـتى اليوم. (نظر له متعجبا) أيجب أن تكون أرضكم الموعودة هي القدس؟!

- نحن لا نطلب القدس. نحن نريد فلسطين.

- لا يوجد دعم لكم لدينا يا هرتسل. جلَّ ما سنفعله أن نصلي لكي تستنير عقول اليهود.. (وأشاح بوجهه بعيدا)

شرد ذهن هرتسل بعد أن فهم أن البابا أنهى حديثه. شعر بأن المساعي لدى السلطة الكنسية لن تجدي نفعا، وأنه يجب أن يعتمد على أبناء جلدته فقط. يبحث بينهم عن طريق آخر لتحقيق حلمه رغما عن الكنيسة والأتراك. واعتقد هرتسل دائما أنه يمكنه أن يلعب بورقة رغبة الغرب في التخلص من اليهود وتهجيرهم إلى مكان ما خارج حدوده، حيث يمكن توظيفهم لصالح الغرب الذي لفظهم. كان يعلم مدى كراهية الأوروبيين لبني جلدته، فقرر طرق كافة أبواب الشرق والغرب مستغلا رغبة الجميع في التخلص من اليهود. وبالتدريج تيقن بأن اللجوء إلى الاستعمار الغربي هو الأنسب باعتباره الآلية الوحيدة لتنفيذ مشروعه الاستيطاني الإحلالي. كان يلح دائما على فلسطين، وإن كان يطلبها على استحياء عن طريق أصدقاءه، إلا أنها كانت رغبته الحقيقية، وشهيرة هي حكاية البريطاني "سيسيل رودس"، الذي جاءه يوماً أحد أصدقاء هرتسل يسأله النصح بشأن اختيار فلسطين موقعاً لتنفيذ المشروع الصهيوني، فأجابه سيسيل: قل لهرتسل أن يحتفظ بنقوده في جيبه..

وحينما سمع هرتسل تعليق سيسيل علق قائلا:

- يوجد سر لا أبوح به لأحد، وهو أنني لا أملك نقوداً. بل أنا على رأس حركة لا تضم سوى شراذم من الشحاذين والحمقى.

ولم يمهل القدر هرتسل حتى يرى نتاج مساعيه. فبعد أشهر معدودة من مقابلته للبابا أصابه مرض عضال، وتوفي في النمسا يوم ٣ يوليو ١٩٠٤ بعد

حياة حافلة بالمحاولات المستمرة لجمع شتات يهود العالم في وطن قـــومي يلـــم شملهم، تاركا خلفه وصية وحيدة "لا ترتكبوا أخطاء حمقاء بعد أن أموت"..

❁❁❁

في لندن، مساء الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧.. يجلس اللورد "روتشـــيلد" في غرفة مكتبه، ووجهه يمتلئ بتعابير مختلطة، فهي رغبة وأمل وفـــرح وشـــجن وشرود.. وقد أمسك بورقة قرأها مرات ومرات.. كانت يـــداه ترتعشـــان وعيناه تنظران إلى جزء بالرسالة يقرأه مرارا وتكرارا وهو لا يصدق نفسه..

Foreign Office,
November 2nd, 1917.

Dear Lord Rothschild,

I have much pleasure in conveying to you, on behalf of His Majesty's Government, the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to, and approved by, the Cabinet.

'His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a national home for the Jewish people, and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object, it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country".

I should be grateful if you would bring this declaration to the knowledge of the Zionist Federation.

Yours sincerely,
Arthur James Balfour

"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يكون مفهوماً بشكل واضح أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى. وسأكون ممتناً إذا ما أحطتم اتحاد الهيئات الصهيونية علماً بهذا التصريح... (توقيع: *بالفور*)"..

طوى اللورد رسالة وزير الخارجية البريطاني. وقام من مقعده ليتجه إلى الشرفة، ويشرد بذهنه إلى بعيد، يتخيل ما يمكن أن تفعله دولة بني إسرائيل القادمة في فلسطين. وبالطبع، كان يرى فيها الأمل والاستقرار والرخاء والسلام الأخير لعشيرته، بالإضافة إلى ثروات الشرق التي ستتدفق عليه وعلى بني جلدته..

(٤)
جيش الإنقاذ

فلسطين عام ١٩٤٩ بعد ٣٢ عاما من تصريح بالفور.. كانت المعارك طاحنة في كل أرجاء البلاد.. رائحة زهور البرتقال اختلطت برائحة البارود والدماء وسحابات الدخان الكثيف، الذي عكر جو فلسطين بعد قرار تقسيم الأمم المتحدة لبلد السلام. ومع اشتداد حدة المعارك في مدينة القدس بين العرب والعصابات اليهودية، التي لم تفرق أبدا بين المحاربين والمدنيين، كان مراسلي الصحف والوكالات الإخبارية يهرولون إلى خارج المدينة ليتقوا شرها بعد أن باتت تستهدفهم دون رادع.

وفي مكان بعيد خارج المدينة العتيقة، كان اثنين من الصحافيين المصريين يسرعان للاختفاء داخل منطقة كثيفة الأشجار تطل على سهل واسع منبسط، كان مسرحا لمعركة عظيمة منذ أيام. وحينما وصلا إلى الأشجار أشار أحدهما للآخر بالتوقف وهو يلهث..

- الحمد لله.. الحمد لله.. نجونا بأعجوبة.. فلنسترح قليلا..

- وهل تتشرف بهروبنا يا حسن.. ماذا ستحكي لأطفالك عندما تعود إلى القاهرة (ويضيف بمرارة) أتقول لهم أننا هربنا لعجزنا عن مواجهتهم..

- لا تقسوا عليَّ وعلى نفسك يا خالد.. فنحن مثل الجميع، والعصابات اليهودية أصبحت تستهدفنا.. تعلم أننا لا نستطيع إلا أن نرصد ما يحدث ونفضحه.. نحن لا نصلح للقتال، استقتلهم بقلمك؟

ينظر خالد إلى حسن، وهو يشعر بمرارة، ويتأمل تلك الجثث العربية المتناثرة أمامه من بعيد. يمسح دموعه بكفيه ويردد بصوت ضعيف: "ياليتني كنت أستطيع.. يا ليتني"..

يتذكر خالد فرحته حينما كان يغطي فعاليات جلسة جامعة الدول العربية في نهاية عام ١٩٤٧ لمناقشة أحداث فلسطين. وكانت المرة الأولى التي يكلف فيها بمثل هذا العمل. وقد قررت الجامعة حث الدول العربية على تعبئة كامل قوتها لتشكيل جيش الإنقاذ الذي ستكون مهمته مساعدة الأخوة في فلسطين للقضاء على العصابات اليهودية التي تحاول الاستيلاء على الأرض بالقوة.. ولكن سرعان ما اكتشف العرب أن عدد أفراد جيشهم لا يقارن بكثرة أفراد عصابات بني صهيون التي اقترب عددهم من المائة وعشرة ألف من مقاتلي الهاجاناة وحدهم، فضلا عن فترة التدريب القليلة، التي قضاها المقاتلين العرب في التمرين على استخدام الأسلحة التي وردتها إليهم الحكومات العربية..

لقد وصلت الجيوش العربية من مصر وسوريا والعراق والأردن والسعودية ولبنان إلى فلسطين، وهاجمت المستعمرات الصهيونية المقامة فيها، كما أغارت القوات المصرية على تجمعي كفار داروم ونيريم الصهيونيتين في النقب. ولقد قاتل الجيش الأردني على حدوده مع فلسطين باستماتة. واستمرت المعارك حتى تدخل مجلس الأمن وفرض وقفا لإطلاق النار في ١٠ يونيو ١٩٤٨.. وتضمن القرار أيضا حظر تزويد أي من أطراف الصراع بالأسلحة، ومحاولة التوصل إلى تسوية سلمية، وتم تحديد هدنة لمدة ٤ أسابيع..

وعقب صدور هذا القرار الدولي توقف القتال بين الجيش الصهيوني والجيوش العربية النظامية. أما جيش الإنقاذ فواصل عملياته العسكرية في منطقة الجليل.

وبالرغم من حظر التسليح أو إرسال أي عدد جديد من القوات لجبهات القتال، فإن الصهاينة لم يلتزموا مطلقاً بهذا الشرط، وعوضوا خسائرهم وانهالت عليهم الأسلحة بصورة ضخمة، خصوصا الطائرات، حتى أصبح للهاجاناة سلاحهم الجوي الخاص. فضلا عن تطوع الآلاف من يهود أوروبا للذهاب إلى جبهات القتال..

وقامت العصابات الصهيونية بخرق الهدنة للتوسع في الأراضى التي احتلتها، حيث زحف جنوبا من القطاع الشمالى عدد كبير من القوات نحو الفالوجة، التي ترابض فيها القوات المصرية لمحاولة كسب أرض جديدة. وكذلك تطويق المصريين فيها لإضعاف الجبهة الجنوبية، التي كانت تقترب شيئا فشيئاً من تل أبيب..

وفي ٨ يوليو ١٩٤٨، استأنف الصهاينة القتال في جميع الجبهات. رغم محاولات الأمم المتحدة لتمديد مدة الهدنة. وعندما استؤنفت المعارك من جديد كان للجيش الصهيوني اليد العليا، واتخذت المعارك مسارا مختلفا، فتعرضت القوات العربية لسلسلة من الهزائم، استطاع بعدها الصهاينة فرض سيطرتهم على مساحات واسعة من أراضي فلسطين التاريخية. وانتهت المعارك في ٢١ يوليو بعد أن هدد مجلس الأمن بفرض عقوبات قاسية على المتقاتلين. فقبل العرب الهدنة الثانية التي كانت اعترافا صريحا بتلك النكبة..

لقد مرت كل تلك الأحداث المريرة في ذهن خالد، الذي نظر إلى صديقه بغضب وحسرة، وهو يبكي ويهمهم بكلمات هستيرية غير مفهومة، اختلطت بدموعه. فضمه حسن إليه وقد كان يشعر بنفس شعور خالد، ولكنه حاول أن يتمالك أعصابه..

- هون على نفسك يا صديقي، فلنسترح قليلا ثم نفكر في الخطوة التالية.

- أتذكر يا حسن ؟ حينما بدأت العمليات في مارس الماضي، واستطاع مجاهدي العرب إعاقة حركة وسائل النقل وخطوط المواصلات والتموين اليهودية، ثم سعوا إلى قطع المياه والمؤن عن اليهود في القدس، وسيطروا على مداخل المدينة من شرقها وشمالها.

- نعم أتذكر.. وكدت أن أفقدك حينما صممت على الاقتراب من دار الوكالة اليهودية في القدس، وحينها نسفها العرب. ثم تابعنا عن قرب ما حدث في معركة "شعفاط" وكفار عصيون، بعد أن أصر مقاتلي العرب الشجعان على منع قوافل إمداد المستعمرات في القدس من العبور.

- لكن فرحتنا لم تدم طويلا. فلم نكد نفرح حتى توالت الهزائم وتعرض مقاتلينا للمذابح.. ياه.. سقطت القسطل في يد اليهود، وكثرت مجازرهم في القرى العربية (يتنهد بحسرة وهو يتذكر مشاهد دير ياسين المروعة).

- خالد.. هل علمت أن اليهود سيطروا على معظم مناطق خارج سور القدس القديمة. حي الشيخ جراح، ومعسكر اللنبي، ومعسكر العلمية، ودير أبو طور، والنبي داوود.. لقد سقطت قدسنا الغربية..

يستلقي خالد على ظهره ويتأمل أعالي الأشجار الممتزجة مع أشعة الشمس وبقايا سحب متفرقة، ويردد: "وقريبا الشرقية يا حسن. وقريبا ستسقط الشرقية".. لقد ضاعت فلسطين.

يسود الصمت لدقائق بينهما. لم يسمع خالد وحسن خلالها إلا أصوات الطيور وفحيح أشجار الزيتون وأصوات الرياح، ويحاول كل منهما تصفية

ذهنه ليستطيع التفكير فيما سيفعله بعد ذلك. ولكن يقطع الصمت صـــوت خطوات أقدام كثيرة، وثقيلة على الأرض، مصاحبة لصوت مركبة حربية.

- حسن.. من هؤلاء ؟ لا نريدهم أن يرونا حتى نتأكد منهم..

- يبدو أنهم من عصابات الهاجاناة. ولكن ما الذي أتى بهم هنا؟

- أنظر هناك. إنهم يفحصون جثث الشهداء العرب.

- نعم.. ولكن عما يفتشون ؟

- لا أعلم.. ولكن الأمر مريب (يصمت لبرهة ثم يستطرد) انظـــر، إنهـــم يجمعون بعض جثث جنودهم في المركبة. ولكن لماذا كانوا يقفون كـــثيرا عند الجثث العربية؟!

- إنهم يرحلون، لننتظر قليلا ثم نذهب لنرى.

بعد قليل، يقتربان ببطء نحو الجثث. يتلفتان حولهما خوفا من وجود قناصـــة يهود. كانت رائحة الموتى تعيق الحركة، فهي تزداد كلمـــا اقتربـــا أكثـــر.. لكنهما تقدما لمسافة كافية، فذهب خالد نحو إحدى الجثث وبدأ يفتش فيهـــا، لعله يجد ما كان يبحث عنه اليهود (وفجأة انتفض مذعورا أمام جثة عـــربي في ثياب بدوية)..

- ما بك يا خالد. ما الذي أفزعك هكذا ؟

- أنظر إلى عنق هذا الإعرابي.

نظر حسن إلى عنق الإعرابي، فاتسعت عيناه من هول المفاجأة، ونظر إلى خالد قائلا: "إنه خاتم الهاجاناة. ولكن لماذا يفعلون ذلك في جثث الشهداء العرب". يهرول حسن ليتفحص جثث أخرى.

- خالد.. انظر !! إن بعض الشهداء العرب لهم نفس الخاتم على أعناقهم. ما معنى ذلك ؟ أنا لا أفهم شيئا.

- من الواضح أن خطتهم أن نعتقد عند رؤيتنا لهذا الخاتم بأنهم كانوا يتعاونون مع اليهود. إن ذلك سيجعل المجاهدين العرب يعتقدون أنهم يقتلون بنيران صديقة.

- اللعنة.. إن خططهم أكبر مما نتصور. سيجعلوننا نتهم بعضنا بالخيانة ونفقد الثقة في بعضنا البعض. اللعنة.. اللعنة..

يتركان السهل المفتوح. يسيران وقد خارت قواهما، يبتعدان عن جثث الموتي. يختفيان داخل غابات الأشجار مرة أخرى، شاردان باكيان. يردد حسن: لكم الله يا عرب.. كم ستعانون من اتهامات الخيانة بعد انتهاء تلك الحرب. عدم الثقة الذي سيوصم به العرب لعشرات السنين وربما مئات. لقد استطاع اليهود إهانتنا يا خالد. أهدرت كرامتنا. وسينهشوننا بأسنانهم وينادون بالسلام.. سينهشوننا بأسنانهم وينادون بالسلام.

(٥)

صلاح الدين "القدسي"

كنت أتأمل لوحة (بانورامية) تمثل إحدى المعارك الحربية. من الواضح أنها كانت شرسة. أبدع الرسام في إظهار تفاصيلها، وكأن المشهد حقيقي. كان مقاتلينا فيها يبدون كأسود ضارية تطارد فرائسها، وتنال منهم. الأعداء في ذعر يفرون في كل اتجاه، ومروحياتنا تحوم في الأفق وتقصف مواقعهم، وأحد مقاتلينا يحمل علم الدولة الفلسطينية، يرفعه بيد فوق إحدى بنايات القدس، وبيده الأخرى سلاحه يطلق منه النار.

انتبهت إلى صوت يصيح عليَّ بوهن: بحثت عنك في كل قاعات المتحف وأنت هنا يا بني..

إنه جدي الحبيب. أراه دائما شارد الذهن، يَحنُ إلى ذكرياته القديمة. وكأن أيامنا لا تحمل أي قيمة يمكنها نيل إعجابه. وعلى الرغم من ذلك فإنه دائم التشجيع لأبناء جيلي بابتسامة لم تبرح وجهه يوما قط..

- أيامكم جميلة يا جدي. لقد كان هناك شيء تفعلونه.

- ولكن مستقبلكم جميل بكم يا بني. لقد مهدنا لكم طريق، وعليكم أن تستكملوه بأنفسكم دون كلل.

- الأوضاع حاليا لا تبشر بالخير يا جدي..

- صدقني يا بني. الذي رأيناه في صبانا يجعل كل شيء بعده يهون، وأي شيء مقدور عليه في أيامكم. أنتم الآن أحرار. دولتكم حرة ولكم دستور

وقانون وجيش وآمنين على أنفسكم وأموالكم. الأرض عادت يـــا بـــني، وسوف يساعدكم ذلك على رسم لوحة أجمل من تلك اللوحات (يشـــير بيده إلى اللوحات المعلقة على الحاوائط من حوله)..

نظرت إلى جدي الذي تحول وجهه إلى الحزن وهو يقول كلماته، وأمســـكت بيديه وقلت له ممازحاً إياه:

- تلك هي الحقيقة يا جدي العزيز، فأي شيء نفعله لا يقارن بما فعلتموه من أجلنا (ضحكت بصوت عالي واستطردت) نحن لا نفيد.

- لا يا بني. أنتم الحاضر والمستقبل. لقد قمنا بدورنا، وأنتم الآن تقومـــون بدوركم. جيلنا وجيلكم لا يتعارضان ولكن بينهما لقاء.

- ولكن يا جدي، أعلم أنك كنت من أبطال تلك المعارك المصورة من حولنا (ضحكت وأنا ألوح بيدي في القاعة، مستطردا) أخبرني يا جدي العزيـــز أي واحد أنت ؟

نظر جدي إليَّ مبتسماً، وذهب نحو لوحة كبيرة مرسومة على أحد الجـــدران، لوحة تصور معركة شرسة بيننا وبين الأعداء. نظر إليها طـــويلا في شـــرود. للحظات شعرت أنني أخطأت فيما قلته، ولكن جدي أشار إليَّ لكي ألحق به، ووضع يده فوق رأسي، وأشار إلى موضع باللوحة وقال مبتسماً:

- يبدو أنني هذا الرجل.

نظرت إلى الموضع الذي أشار إليه، المرسوم فيه مقاتل يقود بعض الأشـــخاص للخروج من موقع للأعداء. كلهم يصطفون خلفـــه ويســـرعون لركـــوب مروحية تنتظرهم في ساحة قريبة منهم. لقد كان الموقع يشتعل خلفهـــم مـــن

جراء قصف تلك المقاتلات التي انقضت عليه من السماء. سألت جدي وأنا أقترب من المشهد ولا أكاد أصدق أنه كان يعيش تلك اللحظات الصعبة.

- أهذا أنت يا جدي ؟!

- نعم..

- ولكن لماذا لم ترو لي عن بطولاتك في تلك المعركة من قبل ؟

- سوف أروي لك كل شيء، تعالى معي.

أخذنا نتجول في قاعات بانوراما القدس نشاهد نماذج الأسلحة والمعدات، وندقق في اللوحات التي تسجل المعارك. كنا نردد بحيوية سويا أغنية فيروز (يا قدس. لن يقفل باب مدينتنا فأنا ذاهبة لأصلي. سأدق على الأبواب وسأفتحها الأبواب. وستغسل يا نهر الأردن وجهي بمياه قدسية. وستمحوا يا نهر الأردن آثار القدم الهمجية).

روى جدي لي أثناء جولتنا بعض ما قام به مع رفاقه في حرب التحرير، وكنت مستمتعا جدا بما يرويه وأتخيله وكأني معهم. وفي نهاية جولتنا طلبت منه أن نذهب مرة أخرى إلى لوحة المعركة التي قال أنه شارك فيها لألتقط صورة له بجوارها. كانت لوحة رائعة مكتوب على لوحتها الإرشادية (مشهد تحرير الرهائن: عملية جبل المكبر – ١٦ نوفمبر ٢٠٣٠)..

- إنها ملحمة عظيمة يا جدي.

نظر إليَّ جدي الحبيب نظرة حانية، وقال وهو يبتسم:

- كانت فترة عصيبة وسعيدة يا بني..

نظرت إلى جدي صلاح الدين "القدسي" كما يناديه أهل القدس، وأنا متعجب من كلماته، وقد تركني ليشرد بذهنه بعيداً إلى الماضي، وعيناه مغرورقتان بدموع اختلطت بابتسامة عذبة سعيدة. لكم أحببت فيه هذا الشجن. إلا أن صبري قد نفذ، فقاطعت صمته وطلبت منه أن يستكمل الحديث عن ذكرياته في تلك الحرب التي قرأت عنها كثيرا، وشاهدت العديد من الأفلام التي صنعت لتخليدها. فما رواه لي أثناء جولتنا لم يتعد بعض المواقف التي لم ترو ظمأي. فنظر إلي مبتسما وهز رأسه بالإيجاب، وبدأت أسمع أحد أبطال حرب الكرامة، الذي قرر أخيرا أن يكسر حاجز الصمت ويروي لي حكايته.

(٦)

قادمـــون

على عكس الهدوء المعتاد في القدس الشرقية، استيقظت في الصباح فوجـــدت صراخا وصخبا يصم الأذن، تحركت في فراشي ولكني لم أبارحه، ناديت على أمي مرارا وتكرارا، ولا تجيب.

- أمي.. أمي.. ما هذا ؟ ماذا يحدث ؟

في الغالب لا تسمعني، فتلك الأصوات كانت عالية جدا، وقـــد اختلطـــت بشكل يصعب عليَّ تمييزها.. إلا أن الصخب قل قليلا بعد أن تمالكت نفسي بعض الشيء، واستطعت تمييز بعض الجمل والكلمات (الله أكبر.. الله أكبر.. اذهب من هناك.. احمل هذا وارحل سريعا فهم قادمون). لم أستطع فهم مـــا يُقال، من هم القادمون، وإلى أي مكان يرحل الناس. ولمـــاذا هـــم فرحـــون ويهللون ويصيحون بالتكبير.

صوت من الطابق السفلي ينادي عليَّ:

- صلاح الدين. صلاح الدين. استيقظ.

إنها أمي تنادي عليَّ (نعم يا أمي. سوف آتي إليك حالا)..

قمت من الفراش سريعا، وتوجهت إلى النافذة لكي أفتحها وأملي عيني بأجمل مشهد أعشقه منذ كنت طفلا، إنه المسجد الأقصى.. فتحت النافذة لأجـــد المشهد وقد تغير تماما. سحب الدخان في كل مكان والطائرات الحربية تشـــق السماء بعيدا فوق المسجد الأقصى. إنها طائرات عربية، أستطيع تمييز شارت

وأعلام الدول التي على أجسام الطائرات. تلك سورية، وهذه عراقية، وهناك طائرة تحمل العلم الليبي تطارد طائرة إسرائيلية فوق سماء القدس، وهذه سعودية. ويمنية وجزائرية ومغربية وقطرية وإماراتية وعمانية، وغيرها.. الحوامات العربية تقوم بإنزال الجنود، الذين ما أن تطأ أرجلهم الأرض حتى يتحركون في خفة ومهارة، يقتحمون حارات القدس، إنهم مشاة العرب..

- صلاح الدين. لماذا تقف أمام النافذة هكذا، هيا لكي نرحل من هنا سريعا. لقد شنت القوات العربية الحرب على أعداء الأقصى ليلا، وفوجأنا بهم داخل القدس في الصباح. وسرعان ما ستصبح القدس مليئة بالجنود العرب واليهود يتقاتلون. أيعقل هذا ؟! كنا نظنهم سيشحبون ويستنكرون كالمعتاد، إلا إنهم صدقوا في تهديدهم للصهاينة هذه المرة.

- لا يا أمي.. لن أرحل، كيف تطلبين مني ذلك، وأنا كنت انتظر هذا اليوم منذ صغري..

نظرت إليه وتكاد المفاجأة تخلع قلبها من بين ضلوعها، فصلاح الدين هو وحيدها، لا تستطيع فراقه، ولا تتخيل يوما أن يعرض نفسه لأي أذى.

نظرت إليه مذعورة، وهي تصيح فيه:

- ماذا ؟! ولكن يا بني، لا نعلم ماذا سيكون الوضع بعد قليل، وإلى أي مدى سيكون رد الصهاينة على هذا الهجوم العربي. إن وجودك هنا خطر عليك. ومن سيرعانا في غيابك، أسرع بالله عليك يا بني، أسرع.

- لا يا أمي.. أنترك للجيوش العربية مهمة تحرير أرضنا، ونقف نحن أصحاب القضية في موقف المتفرجين، أي كرامة وأي حرية تلك؟ لن أترك

وطني في تلك الظروف، وسوف أبقى لأدافع عن القدس وأساعد في تحرير أرضنا.. كنت أنتظر هذا اليوم بشغف، وها هو أملي يتحقق.. فلسطين لن تحررها إلا يد الفلسطيني يا أماه.

- ولكن يا بني.. أنت صغيري ووحيدي وأخاف أن أفقدك. والله لن أعيش بعدك لحظة واحدة..

- أمي.. أتذكرين أبي حينما كان يجمعنا ليلا ويحكي لنا عن حلمه. كان يتمنى بأن يستيقظ صباحاً فلا يجدهم في القدس. إن حلمه يتحقق الآن. رحمة الله عليه كان يتمنى هذا اليوم. أتذكرين لماذا أطلق عليَّ اسم صلاح الدين، لأنه تمنى يوما أن أكون مثل البطل العظيم "صلاح الدين الأيوبي". أمي.. حبيبتي.. أنا صلاح الدين.. وسوف أبقى..

- معك حق، سوف أبقى معك يا بني (وأمسكت بوجهة مداعبة إياه فرحة به وهي تبتسم، واستطردت) فأنا أم صلاح الدين..

لم تترك أمي ليَّ الفرصة لكي أرد عليها، فقد أسرعت بالنزول إلى الطابق السفلي، وأسرعت أنا إلى المذياع لأستمع إلى الأنباء. كل المحطات يشوبها التشويش، إنها محطة صوت العرب، أكاد لا أسمعها من فرط الصخب، ولكن وسط تلك الشوشرة أحاول التركيز.

- ... اجتاحت الطائرات الحربية العربية مدن فلسطين المحتلة، بعد أن تم التشويش على الدفاعات الجوية الصهيونية. وفي ساعات قليلة كانت الطائرات فوق سماء فلسطين تعيد لها اسمها الذي غاب عن التاريخ طويلا، وتهدد المنشآت العسكرية الصهيونية، بعد أن استخدمت بعض الدول الصديقة كافة طاقاتها التقنية لعرقلة أي هجوم إسرائيلي مضاد. ووصلنا

بيان من قيادة الجيوش العربية المشتركة يفيد بأن قوات المشاة الأردنية قد اقتحمت الضفة الغربية، وتحاول الآن السيطرة على رام الله والقدس وبيسان ونابلس.. ونجحت قوات المشاة والمدرعات المصرية في ساعات قليلة بمساعدة الطيران الأردني والمصري إحكام سيطرتها على قطاع غزة بالكامل وتأمينه، وتقوم حاليا بمحاولة السيطرة على شمال بئر سبع، وقد يلتقون بالقوات الأردنية في جنوب الخليل..

ما هذا ؟! أنا لا أصدق ما أسمع، بالتأكيد أحلم، سوف أتأكد من الإنترنت (يذهب ليفتح حاسوبه) نعم.. نعم. هناك تأكيدات على كل ما سمعت. ولكن كيف لا أصدق وأنا أري نسور العرب يشقون سماء القدس. ما هذا ؟!! يقولون أن قوات سوريا ولبنان تحاول السيطرة على صفد وعكا، والأسطولين المصري واللبناني يصطفان في مواجهة المدن الساحلية عكا ويافا وحيفا وطولكرم والرملة..

- صلاح الدين.. صلاح الدين.

- نعم يا جهاد.

- أمي أخبرتني أنك ستبقى، وسوف أبقى معك.

- لا يا أختي الحبيبة، إن البقاء خطر عليك. اذهبي مع إخوتك الصغار فمهمتك هي حمايتهم. انتظري سوف أعطيك شيئا مهما.

أسرع صلاح الدين إلى خزانة ملابسه، وأخرج من أسفلها مسدس قديم، وألقاه لأخته جهاد، والتي تلقفته بمهارة، ونظرت إلى المسدس وسألته متعجبة.

- أتعطيني مسدس أبي؟؟ لا يا أخي، إنه ميراثك أنت.

- كان سلاحه في يوم من الأيام يحمي به رفاق كفاحه والآن هو لحمايتك أنت وأخوتك. الآن روح أبيك الطاهرة معك، أسرعي بتجهيز نفسك للرحيل إلى غزة فهي آمنة الآن، وحاولي إقناع والدتنا بالرحيل.

- سمعا وطاعة أخي.

هبطت جهاد درج المنزل ونادت على إخوتها الصغار، وأسرعت إلى أمها تحاول إقناعها، ولكن هيهات، فنادت صلاح الدين الذي أسرع بالنزول إلى الطابق السفلي.

- هلم يا أخي لإقناع والدتنا بالرحيل معنا.

- لا يا بني لا تحاول، فسوف أبقى معك.

- أمي.. أستحلفك بالله أن ترحلي معهم إلى غزة، وأعدك أن نلتقي مرة أخرى. من سيرعى إخوتي الصغار في غيابك، فهل ترضين أن يتأذى أي منهم. وهنا سوف أكون بين أهلي، فالقدس ستعود عربية مرة أخرى ويجب أن نحافظ عليها، وألا ينشغل بالنا بشيء سواها.

- نعم يا بني. ولكني لا أستطيع الرحيل بدونك.

- سوف نلتقي. لا تقلقي يا أمي (وانتصب يرفع رأسه متفاخرا، واستطرد وهو يضحك) فأنا صلاح الدين كما تعلمين.

- أضحكتني يا بني.

- اضحكي يا أمي واسعدي فاليوم عيد لنا وللقدس ولكل العرب، إنه عيد للمسيحي والمسلم واليهودي المؤمن، والله يا أمي لسوف ننتزع القدس من بين أنياب الصهاينة.

- لقد كبرت يا بني. سوف أرحل، ولكن مع وعد باللقاء.

- أعدك يا أمي. سنلتقي.

أسرع صلاح الدين بالصعود إلى غرفته ليرتدي ملابسه، ويرى ما سيفعله بعد أن يطمئن على رحيل أهله إلى غزة، وهو لا يعلم أين سيلتقي بأمه كما وعدها، هل في الدنيا أم بين يدي الله.

كان المشهد بالخارج على غير عادة القدس، الجميع يتحرك في كل اتجاه وبسرعة. هنا وهناك تجد الرجال وعلى وجوههم مزيج من علامات الدهشة والفرح. أيعقل هذا ؟!! أتكون هي المعركة الفاصلة ؟ وفي هذا الزحام تتحرك إحدى الفتيات بخطوات سريعة رشيقة متجهة إلى منزل قديم بحارة الواد. تطرق الباب بسرعة، فينفتح الباب فإذا بصلاح الدين في وجهها مندهشا.

- ألم تغادري القدس يا سلمى ؟!

- أغادر ؟!! أي هراء هذا الذي تقوله. القدس كل حياتي لو خرجت منها أموت. سأبقى فكلنا كنا ننتظر يوما كهذا. أين خالتي (وتصيح) يا خالة يا خالة.. أين أنت؟

- هنا يا ابنتي. تعالي.

- جئت لمرافقتكم حتى تصلون إلى نقطة آمنة ثم أعود. فقد علمت أنكم سوف تغادرون.

- نعم يا سلمى. سنذهب إلى غزة من أجل الصغار.

- لفترة قصيرة يا خالتي، ولو ضاقت الحال بغزة فلتذهبوا إلى مصر، لقد فتح الجيش المصري الحدود على مصراعيها.

نظرت سلمى حولها تبحث عن صلاح الدين، واتجهت إلى خارج المنزل لتجده يتحدث إلى أحد الرجال بالخارج، فتسرع إليهم.

- استمع لي يا صلاح الدين. يجب أن نتحرك وبسرعة.

- أطمئن على أهلي وبعدها سأكون معكم يا فواز، ولن أقصر أبدا.

تنظر إليهم سلمى وتشير إليهم بإصبعها محذرة وهي تبتسم:

- صلاح الدين. فواز. أنا معكم، ولا داعي لإثنائي عن واجبي.

- لا يا أخت سلمى، سوف يكون لك دور مهم، ولكن يجب أن نطمأن على خروج العجزة والأطفال والنساء الغير قادرات على القتال، وبعد أن يفرغ صلاح الدين من الاطمئنان على أهله سنقوم بترتيبات كثيرة.

نسمع صوت ينادي من بعيد. فواز. فواز. ينظر الثلاثة في اتجاه الصوت. إنه إلياس. شاب مسيحي يسكن في طريق الآلام.

- مرحبا إلياس. ألم ترحل بعد مع أسرتك ؟

- ولِمَ أرحل يا فواز. ألن أبقى معكم ؟ إنها مدينتي وتحتاج إليَّ أيضا. فلم الرحيل (ينظر إلياس إلى الجمع ضاحكاً ويصيح) أتحسبونها حرب إسلامية جهادية لا مكان ليَّ فيها ؟!! وإذا كانت. فسوف أحارب معكم.

- معذرة يا إلياس. لم أقصد. إنها حلمنا القومي. ومنذ متي نفكر بتلك الطريقة. نحن في السراء والضراء معا، ولكن عائلتك !!

تقاطعه سلمى:

- إنه يقصد يا إلياس أنك يجب أن تطمئن على ولدك وزوجتك أولا قبل أن تفعل أي شيء. اهتم بسلامتهما أولا ونحن ننتظرك.

- سَلِمَ لسانك يا سلمي. إن هذا ما قصدته يا صديقي. اذهب واطمئن على أسرتك، ونحن ننتظرك.

- حسنٌ، ولكن أسرعوا فالطوافات الأردنية تلقى بمظلات تحمل أسلحة ومعدات جنوب الحي المسيحي عند البوابة الجديدة، ويجب أن نكون هناك مع شباب القدس.

يترك كل من صلاح الدين وسلمى الجمع، ويتحركان تجاه باب المنزل، وتعابير وجهيهما لم تتخلص من الدهشة بعد.

- (التقطت سلمى يد صلاح الدين) حبيبي.. أتصدق ما يحدث ؟!

- لا .. لا أصدق، وأشعر أنني في حلم.

- إذن.. فلنقرر ألا نصحوا من النوم أبداً.

تتركه وهي تضحك، وتنادي على خالتها، فوجدتها وقد استعدت للرحيل.

- وداعا يا ولدي. لن أوصيك. لقد وعدتني باللقاء.

- اطمئني يا أمي. سنلتقي.

- هيا يا خالتي فلنتحرك الآن.

- لن أوصيك يا سلمى.

- لا تقلق يا صديقي، لن أتركهم إلا في مكان آمن، وسوف أعود إليك سريعا بعد الاطمئنان عليهم.

(٧)

صخرة الآلام

منذ التحقت بكلية الحقوق في مصر كانت تسيطر عليَّ فكرة واحدة، سيولد طفل من أم فلسطينية ليحرر القدس. أين؟ ومتى؟ ومن هو؟ لا أعلم. شعرت أحيانا أنني هذا الولد. شعرت في داخلي أنني هذا الطفل. هنا قلب العالم ومركز الكون في اعتقادي، وها قد جاءت اللحظة لأثبت لنفسي أنني قادر على فعل شيء، ولكن أتحين لي الفرصة يوما لأثبت ذلك ؟

حاول أجدادنا وآبائنا طوال سنين القيام بأعمال كانت من وجهة نظرهم وسيلة لتحقيق حلمهم بتحرير المسجد الأقصى. منهم من دعى إلى حلول سلمية، ومنهم من رفع سلاحه في وجوه الصهاينة. ولكن لا نتائج، ظلت القدس كما هي مقسومة، يتخبط أهلها في تناقضات كثيرة، وحياتهم لم تعد بسيطة، فهي تزداد تعقيدا كل يوم.

مات أبي ورفاقه يقولون له أنت فعلت الكثير للأقصى.. ولكنه أبدا لم يقتنع ومات يبكي حسرته عليه. مات وهو يقول لم أفعل شيئا، لم أحقق حلمي. وظل يبكي الأقصى حتى مات بين أيدي رفاق كفاحه.

أبي "محمد عمارة" قائد سرايا تحرير الأقصى. كان يأخذني إلى لبنان كثيرا لنقوم بالتدريب سويا، علمني الكثير والكثير. وكلما طلبت منه أن يشركني في إحدى عملياته ضد الصهاينة كان يرفض.. يقول لي دائما: أدخرك لمهمة أكبر يا صلاح الدين.

- ولكن.. ما هي يا أبي ؟!

- لا تتعجل. أنت امتداد لي، وسوف تجد مهمتك بنفسك يومـــا.. بـــل إن المهمة هي التي ستجدك..

- ولكن يا أبي...

صمت أبي ولم يتفوه بشيء آخر، وحينما عدنا إلى بيتنا في القـــدس لم يكـــون يتحدث كثيرا، ولكنه كان دائما ينظر إليَّ بثقة وأمل.

يقاطع إلياس خيالات صلاح الدين قائلاً:

- أين وصل بك خيالك يا صاحبي.

- إلى أبي يا إلياس.. إلى أبي.

- رحمة الله عليه. كان قائدا عظيما ومفكرا حكيما. أتعلـــم يـــا أخـــي، أن وجودنا هنا يحرك داخلي شعور عجيب.

- وما هو ؟!!

- لقد سرحت بخيالي وكأني أرى ما حدث للمسيح هنا، في موضعنا هـــذا. أتعلم أن المسيح كان يبكي ويصلي هنا في المكان الذي نربض فيه، قبل أن يعتقله الرومان.

- نعم أعلم، ولذلك شيدت هذا الكنيسة، كنيسة الجثمانية فـــوق صـــخرة الآلام.

- أتعتقد أننا هنا للثأر ممن فعلوا ذلك بالمسيح.

- سوف نثأر له يا إلياس. أعدك بذلك.

ينتبه صلاح الدين فجأة، فهناك أحد الأشخاص يقترب من بعيد، فمكانهم كان يستطيع كشف كل المساحة أمام كنيسة الجثمانية بالقدس..

- من هذا القادم من بعيد يا صلاح الدين؟ استعد أنت والرفاق، وسوف أهبط أنا للاستكشاف.

يهبط إلياس سريعا ليقترب منه في قلق، ولكن سرعان ما يهدأ، ويسرع بالقول متعجبا:

- الرائد طارق ؟!! ولكن لماذا تأتي من هنا ؟ ألم نتفق على طريق آمن.

يجيب الرائد طارق وهو يلهث:

- هناك قوة إسرائيلية هناك، والأمر عاجل. أين صلاح الدين؟

- (يشير إلياس بيده) هناك بالأعلى يحذر الباقين منك. إن التعليمات بعدم استخدام اللاسلكي والتقنيات الحديثة يجعلنا نشعر أن السيوف تنقصنا بدلا من المدافع.

يضحك الرائد طارق ويصعد مع إلياس إلى أعلى، ونظراته تتفحص المكان معجبة باختيار صلاح الدين لموقع مراقبة مثالي كهذا، إن الأشجار كثيفة وعلى تبة عالية تكشف الطريق الرئيسي أمام الكنيسة. ويرى منها المراقبون لمسافة بعيدة تساعد على كشف أي قوات صهيونية تأتي من أعلى الطريق بعد تضييق الخناق عليهم.

يظهر فجأة صلاح الدين من بين الأشجار، مُرحبا به بحفاوة شديدة.

- أهلا.. أهلا بصديقي المصري.

- مرت أربعين يوما على بدء عملية (قلب الصقر) وها نحن قد حققنا نجاحات كثيرة.

- نعم ولكن العمليات قد توقفت فجأة منذ يومين، وأنا قلق ممن يفضلون التفاوض مع الصهاينة.

- لا تخف يا صلاح، فلن نتراجع وليشربوا من كأسهم.

- ولكن لماذا توقفنا ؟ إن تجميد العمليات جعلهم يتحركون مرة أخرى في المدن الفلسطينية، ويحاولون لم شملهم من جديد.

- لا تقلق. فإن تحركاتهم بحدود نحن وضعناها، وسنوقفهم في الوقت المناسب. أم أنك لا تثق في قدرات من خططوا لتلك العملية. إنهم أفضل القادة العرب يا صديقي.

- أرجو بالفعل أن تكون هناك خطة وراء كل ذلك.

- لا تتعجل يا رجل. لقد أتيت اليوم وغامرت بهذه الطريقة المكشوفة لأنني أحتاجكم في مهمة عاجلة. تعلم أن (قلب الصقر) قامت للرد على الممارسات الصهيونية القمعية ضد المدن الفلسطينية، وأن ما كان يحدث من تهدئة ومفاوضات من قبل البلاد العربية كان فقط لمنع عرقلة الاستعدادات السرية لتلك العملية، التي تأخرت كثيرا. وقد أثار صمت الحكومات العربية الشك في عدم استطاعتهم حل القضية بشكل جذري. ولكن ها نحن هنا نثبت للعالم أننا لا نتخاذل، وأننا نستطيع أن نتوحد في لحظات ضد أعداء الأقصى، ونهزمهم شر هزيمة بعد أن كانوا يظنون أننا وقعنا في شراكهم.

- نعم.. واتخاذ البلاد العربية هذا القرار الجريء كان مفاجأة للعالم أجمع، وكانت الخطة محكمة للغاية، والاستعدادات التقنية في العملية أذهلت الجميع، الأمر الذي جعل دول العالم تترقب الموقف من بعيد دون أن تتدخل عسكريا، حتى الولايات المتحدة الأمريكية قررت المراقبة، خاصة وأن الصهاينة من فرط خوفهم أطلقوا صواريخهم بعشوائية تجاه كل البلاد المجاورة، فأصبحت بذلك الحرب إقليمية، مما جعل الصهاينة في حالة من الارتباك. كل ذلك نعلمه ولكن ما هي المهمة التي جئت من أجلها؟!

- تعلم أن نسورنا استطاعوا قصف المطارات وتدمير معظم الطائرات على الأرض، وأن القليل منها نجح في الهرب إلى قواعد أصدقائهم البحرية القريبة. والمعلومات التي جمعناها تزيد على ذلك أنهم استطاعوا جمع معظم قواتهم البرية، والتمركز في أماكن جيدة التحصين يسهل الدفاع عنها في كل المدن الفلسطينية، وكان من الممكن أن يقوم الطيران العربي بضرب تلك المواقع وتدميرها.

- إذا.. ما المشكلة الآن، فليقوموا بقصفها.

- إن الأمر صعب، لقد عملوا على جمع العديد من النساء والشيوخ والأطفال كدروع بشرية، وأصبح في كل مركز لهم عدد ليس بالقليل منهم. وهكذا يصعب على النسور قصف مراكزهم.

- وما العمل الآن ؟

- لقد بدلنا الخطة. فبدلا من الهجوم جوا، سوف نقوم بعمليات أرضية للقضاء على النقاط الدفاعية لمراكزهم، وحينما يتم تهريب الأسرى سيقوم الطيران بمهمته، وهناك ثلاثة مراكز في القدس سنتولى نحن أمرها..

- فكرة جيدة. سوف أجمع أشجع مقاتلي سرايا تحرير الأقصى لنبدأ المهمة.

- لا.. فهم يعرفون أساليب مقاتلي السرايا، وبوجودي معكم لاحظت أنك على الرغم من تدريبك على يد والدك العظيم "محمد عمارة" قائد سرايا تحرير الأقصى، إلا إن أسلوبك مختلف عنهم، فضلا عن أن العملية سرية ولا يعلم أحد بها إلا رئيس العمليات وأنا وأنت حتى الآن.

- ومن الآخرين الذين اخترتهم ؟

- لقد رشحنا لتلك العملية نخبة من أفضل مقاتلي العرب.. أنت وفواز وإلياس وسلمى من فلسطين، ومن السعودية عبد الله وحامد، ومن سوريا راشد وصالح ومن ليبيا عامر وحسون وسوسن، وأنا معكم. ومعنا ضباط اتصالات ومراقبين من كافة البلاد العربية، سوف يسهلون مهمتنا كثيرا، بتأمين تحركاتنا والشوشرة على اتصالاتهم.

- ولكن ألا يجب عدم وضع كل هؤلاء في عملية واحدة، لماذا نغامر بأفضل المقاتلين. نحن نسمع عن بطولاتهم كل يوم، ونفتخر بهم.

- يجب أن تكون العملية قوية بما يجب، وهؤلاء يتسمون بالسرعة والمهارة، وسيتنقلون بين المواقع المستهدفة بطريقة تربك العدو، فقد تدربوا على ذلك كثيرا. ومهما يكن يا صديقي فلنجعلها ضربة عربية قوية للكيان الصهيوني، حتى تكون القدس بعدها عربية خالصة.

- تحت أمرك. الله معنا.

- سنتحرك تحت اسم "عملية الحساب"، ونتمنى من الله أن تكون العملية التي تحرر الأقصى، ونحاسبهم بها على كل ما اقترفوا من جرائم.

ينظر صلاح الدين إلى الرائد طارق بدهشة بالغة، فقد شعر في صوت الرائـــد طارق وتعبيرات وجهه بأن المعركة المقبلة ستكون درسا لن ينسوه. ثم نظر إلى رجاله وأشار إليهم ليتبعوه، وأدار كل منهما ظهره للآخر وافترقا.

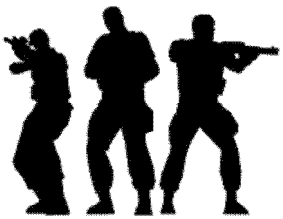

(٨)

الهـروب

في إحدى منازل قرية "البقيعة" في الشمال الشرقي من مدينة عكا الفلسطينية، يتحرك "دان" في أرجاءه جيئة وذهاباً.. كان التوتر ظاهرا عليه وهـو يضـع إصبعه في فمه كطفل مرتبك لا يحسن التصرف. ترمقه "ليئة" بنظرة صـارمة، وتلقي إليه بحقيبة، وتصيح فيه:

- املأ الحقيبة بالمؤن اللازمة لرحلة طويلة، ولا تنس الحليب لدافيد.
- سأفعل.. ولكن إلى أين سنذهب ؟ إن القصف العربي في كل مكان.
- أعلم ذلك يا دان، ولكن ماذا سنفعل. أسنبقى هنا حتى يأتون لقتلنا؟
- ولكن يا ليئة. تعلمين أن دينهم يحرم قتل المدنيين.
- وهل رحمهم الإسرائيليون كي يرحمونا يا دان ؟
- حبيبتي.. نحن مسالمين، وقد أمنونا على حياتنا، ووعدوا ألا يمس أي مدني مسالم بسوء. وتعلمين أننا فعلنا المعجزات لكي لا نخدم في جيش هؤلاء..
- ومن يعلم ما تقوله الآن ؟ هيا قم بتجهيز الحقيبة فالوقت يمر..

يذهب "دان" إلى المطبخ لجمع بعض المؤن من أجل رحلتهم. كان ينظـر إلى كل ركن في منزله وهو يبكي.. وحينما وجدته "ليئة" في هذه الحال، ذهبـت إليه وأجلسته إلى جوارها، أمسكت بيديه واحتضنته، ثم نظـرت إلى عينيـه، وقالت:

- حبيبي.. أقدر شعورك جداً، ومن الصعب عليَّ أيضاً ترك منزلي الـــذي أحبه. ولكن تلك ظروف قهرية، ونحن لا نعلم ما يدبره العرب لنـــا إذا بقينا. لنا طفل جميل، دافيد. طفلك.

- ولكن سكان البقيعة يعرفوننا، ولا أظنهم سيأذوننا، وخاصة وأن تلـــك القرية يسكنها أناس من مختلف الأديان. دروز ومسيحيون ويهود.

- لا تأمل فيهم خيراً إذا تمكنوا يا دان (أمسكت براحتيها وجهه في حنان) هيا بنا نجمع حاجياتنا لنرحل، هيا.

- حسنٌ.. معك حق..

يمسح "دان" دموعه ويقوم لتجهيز المؤن. وحينما فرغ من مهمته نادى علـــى "لينة" ليغادروا المنزل، وقد قامت بدورها بحمل ما استطاعت حمله من ملابس، ثم خرجا سوياً مع طفلهما الصغير.

❁❁❁

كان المشهد بالخارج مريعاً.. سحابات الدخان في كل مكان، الناس يركضون في جميع الاتجاهات. حمل "دان" ابنه وأمسك بيد زوجته، وركضا ســـويا نحـــو منطقة كثيفة الأشجار بالقرب من القرية على أمل الاختباء فيها من المقـــاتلين العرب. وكان "دان" يزداد هلعاً كلما تخيل شكل القافلة العسكرية العربيـــة التي تتجه نحو القرية للسيطرة عليها. فقد أشيع أنها قافلة عظيمة تتكون مـــن عدة مدرعات وحاملات جنود، وأن الحوامات المصرية والعراقية تحلق في اتجاه القرية. كل ذلك جعل "دان" يشعر وكأن الأشجار تبتعد عنهم، في الوقـــت الذي كانت آليات عسكرية قد بدأت في الاقتراب بالفعل من موقع القرية.

يتوقف "دان" وزوجته وهما يلهثان من الركض، وللحظات يفكران في العودة إلى المنزل واستقبال مصيرهما، إلا أن "ليئة" تمالكت نفسها وأمسكت بيد زوجها وجذبته ناحية الأشجار التي كانت قريبة منهما. وبعد أن توغلا كثيراً داخل الغابة كانت أصوات آليات الحرب وصرخات الأهالي وضجيج الطائرات قد خفَّ كثيراً، إلا أن صراخ ابنهما "دافيد" كان يزداد من الجوع، وقد نسيا إطعامه من كثرة التوتر. قررا التوقف لإطعامه، ثم استئناف الرحلة.

نظرت ليئة إلى زوجها وسألته: أيمكن أن ننجو يا دان ؟

- بمشيئة الرب سننجو.
- أخاف كثيرا على "دافيد".
- لا تخافي. إنه سيكبر في أحضاننا كما خططنا.
- كم أتوق إلى ذلك.
- هيا يا حبيبتي. يجب أن نصل إلى الجبل قبل حلول الظلام لكي نجد أي مكان نختبئ فيه.

يستأنفا المسير بين الأشجار الكثيفة في الغابة التي بدأ الظلام يخيم عليها. كانا يستدلان على طريقهما بضوء القمر الخافت الذي كان يختفي وراء بعض الغيوم في السماء. وأخيرا لاح أمامهما الجبل، فأخذا يركضان نحوه للبحث عن كهف بعيد عن الأنظار للاختباء فيه حتى الصباح.

- ها هو يا "دان".. إن هذا الكهف مناسب جداً.
- أرجو ذلك.. فالجو بارد ونحتاج إلى مكان يمكننا إشعال النار فيه دون أن يكشف مكاننا أحد.

يلقي "دان" بأحماله عن ظهره، ويطلب من زوجته انتظاره حتى يستكشف الكهف من الداخل. لم يكن يحمل أي سلاح للدفاع به عن نفسه ضد الحيوانات، فقام بكسر فرع سميك من شجرة جافة، وسرعان ما اختفى داخل الكهف المظلم، الذي لم يبق داخله لأكثر من دقيقتين حتى خرج وهو يشير إلى زوجته باطمئنانه على أمان المكان من الداخل، ثم حمل الأغراض ودخله وخلفه زوجته تحمل ابنه.

أشعل "دان" النار في زاوية غير مقابلة لمدخل الكهف، وجلس إلى جوار زوجته وابنه في صمت. بينما جلست "ليئة" لإطعام ابنها وتدفئته حتى نام. وبعد أن اطمأنت على راحة ابنها، ألصقت نفسها بزوجها الذي احتضنها، وجعل يمسح على شعرها، ثم سألها:

- أتودين أن نبقى هنا حتى تهدأ الحال في الخارج ؟
- لا أعلم. ألديك خطة ؟
- لا.. ولكننا مسالمين، وكنا نحب الاختلاط بهم، وربما تهدأ الأحوال ونستطيع العودة إلى منزلنا.
- ومن يعلم الآن بذلك ؟
- ليئة..
- نعم حبيبي..
- لن نرفع السلاح ضد العرب مع هؤلاء الذين يقتلون الأطفال مهما حدث.
- نعم.. يجب أن يظل والد طفلي شريفاً.

- فلتخلدي إلى النوم، وسأتولى الحراسة حتى الصباح.

- تصبح على خير يا حبيبي..

تستند "ليئة" برأسها إلى قدم زوجها وتنام، بينما استند هو إلى جدار الكهف ينظر إلى الأعلى شارد الذهن، مشتت الأفكار، لا يعلم أي مستقبل ينتظر أسرته الصغيرة. كان يحلم بتحقيق الأمان والسلام لهما. لم يشترك في أي ممارسات شاذة كالتي يفعلها جيش دولته المزعومة، التي احتلت تلك الأرض التي لا يعرف غيرها. ولد فيها وتعلم بين أبنائها. أهله وأجداده منها وفيها، فهم ليسوا مهاجرين من بلاد غريبة، ولكنهم سكانها من يهود الشرق الذين نشأوا في كنف الحكم الإسلامي لتلك البلاد.

إن "دان" حقاً يشعر بأن تلك البلاد هي وطنه الحقيقي.. بغض النظر عن تسميتها فلسطين أو إسرائيل. إنه لا يريد بديلا عن ذلك الوطن. لا يعرف غيره. التحق بخدمة المعبد لكي يتهرب من الخدمة العسكرية الصهيونية. زعمت "ليئة" التي يعشقها منذ الصغر أنها متدينة ولا تعمل يوم السبت، لكي تعفى أيضا من الخدمة العسكرية. لقد أخذا العهد على نفسيهما منذ أن اتفقا على الزواج ألا تتلوث أيديهما بدماء الأطفال والشيوخ والنساء في حرب ملوثة كريهة مهما كانت الأسباب. ولكن كما قالت "ليئة" من سيصدقهما الآن، فربما تجاهل العرب وسط نشوة انتصارهم تاريخ الزوجين بينهما. ربما كانت المعاملة الطيبة التي كان يعاملها العرب لهما قبل الحرب من قبيل اتقاء شر اليهود، وحينما يتمكن العربي منهم سينتقم.. ربما !!

- دان.. دان.. استيقظ.

- هاا!.. هل نمت ؟ آسف حبيبتي غلبني النعاس.

- اخفض صوتك. هناك أناس قادمون نحو الكهف.

- إذن.. فلننصرف سريعاً.

- لا.. لن نتمكن من ذلك، إنهم بالقرب من مدخل الكهف.

- وماذا سنفعل الآن ؟

- لا أعلم.. لكن علينا الثبات ومواجهة قدرنا، ولندعوا الله ألا يـــدخلوا الكهف.

يتجه "دان" بحذر نحو المدخل. لقد وجد سيدة عجوز وفتاتـــان، وبصـــحبتهم بعض الأطفال الصغار. عاد إلى زوجته مسرعاً، وهمس لها:

- إنهم عرب. ثلاثة نساء ومعهم بعض الأطفال.

- وماذا سنفعل الآن ؟

- لي رأي أرجوا أن توافقيني عليه.

- ما هو ؟

- سنقابلهم، ولا داعي لأن نفصح عن هويتنا الحقيقية.

- ماذا تعني ؟ أسنخفي كوننا يهوداً ؟

- ولم لا ؟ فنحن لا نعلم من هم. إن ملامحنا عربية ونتحدث العربية فهـــي لغتنا أيضاً.. ها.. ما رأيك ؟

- كما تريد. وما اسمك أيها العربي ؟

- أنا "هلال" وأنتِ "رغَد" وابننا "سالم". هيا أطفئي النار.

عند مدخل الكهف.. تدخل إحدى الفتاتين لاستكشافه. كان الكهف مظلماً في الداخل بعد أن أطفأ "دان" النار. تتوقف الفتاة قليلاً ثم تخرج سلاحاً ناريـاً صغيراً وتتحرك ببطء حذر. وتقول لنفسها:

- هناك رائحة دخان، بالتأكيد كان هناك أحد هنا في الليـل. أم تـراه لا يزال موجوداً ؟

تنتبه الفتاة فجأة إلى صراخ طفل صغير، فأسرعت بإخفاء السـلاح ونـادت بهدوء بالعربية.

- هل من أحد هنا ؟

يفطن "دان" أن إنكار وجودهم بعد أن فضحهما الرضيع سوف يحبط خطتـه للتخفي، فقام بالرد على نداء الفتاة سريعاً.

- نعم. من أنت ؟ هل معك ما نشعل به النار من أجل الصغير؟ إنه خائف.

- نعم. تفضل هاك كبريت.

- شكرا لكِ. هل أنت وحدك هنا، ألا تخافين من وحشة الجبل؟

- لا إن معي خالتي وابنتها وبعض الصغار. لقد هربنا من القصف الذي لا يميز بين أحد، هل يمكننا البقاء معكم ؟

يشير إليها "دان" بالموافقة.

– نعم.. نعم.. فلنأتي بهم سريعاً. هيا بنا.

ذهب "دان" بصحبة الفتاة إلى الأم والصغار، وأدخلوهم جميعا إلى الكهف بعد أن قاموا بسد جزء من المدخل ببعض الصخور والحشائش لكي لا ينتبه أحد إليه أثناء وجودهم داخله.. وتجمع الجميع حول النار صامتين لأكثر من ساعة، قبل أن يقول "دان":

– من الواضح أن رحلتكم كانت شاقة. يمكنكم النوم وسأقوم أنا بالحراسة حتى المساء. مع حلول الظلام سنتحرك من هنا.

أجابته الفتاة: شكرا. نحن بالفعل كنا في رحلة شاقة.

مد يده لها قائلاً: عفواً. أنا "هلال" وهي زوجتي "رغد" وهذا ابننا "سالم".

– اسمي "سلمى". وهذه خالتي أم صلاح، وابنتها "جهاد" وإخوتها الصغار.

– إذن فلتخلدي إلى النوم، وسأتولى أنا الحراسة لا تقلقي.

يتركهم "دان" لينام، ويبتعد حتى مسافة قريبة من مدخل الكهف تسمح له برؤية المشهد خارجه.. تلحق به "ليئة"وهى تحمل "دافيد". تنظر إليه نظرة فيها إعجاب، فلم تره بهذه الشكيمة طوال معرفتها به. إنه دائما المطيع الذي لا يغضب، لدرجة أنه لا يستطيع أخذ أي قرار صائب إلا بعد جهد.

– ما بك ؟ لماذا تنظرين إليَّ هكذا ؟

تعقد "ليئة" بين حاجبيها وتغلظ صوتها لتقلد زوجها، وهي تحاول كتم ابتسامتها، وهي تقلد جدية الرجال، وتقول بصوت خفيض:

– عفواً.. أنا "هلال" وهي زوجتي "رغد" وهذا ابننا "سالم".

يضحك "دان" وهو يرى في أعين زوجته الغيرة. تضربه زوجته ضربة خفيفة على ذراعه حينما تفطن إلى هدف نظرته. يضحكان سويا وهما يراقبان مدخل الكهف. ومرت الساعات وكانت "ليئة" تتنقل بين موقعه وموقع "سلمى"، وحينما حل الظلام ذهبت "ليئة" وأيقظت سلمى وأخبرتها أنهم يجب أن يأكلوا شيئاً قبل أن يغادروا الكهف. سألتها "سلمي":

- هل تخططون لوجهة معينة ؟
- لا ولكننا على أمل الوصول شمالاً إلى الحدود اللبنانية وعبورها..
- ولكن لماذا لم يبق زوجك ليقاتل مثل بقية الشباب مع القوات العربية؟

أومأت "ليئة" برأسها لبرهة، ثم قالت لها:

- ومن سيعتني بنا (وأشارت إلى دافيد) إنه صغير ولم يكمل عامه الأول، وأنا التي ضغطت عليه ليوافق على الرحيل.
- من أين انتم ؟
- البقيعة.

نظرت إليها "سلمى" بتمعن فقد شعرت أن هناك أمر ما. رفعت "ليئة" خصلة من شعرها وأخفضت عيناها، وحاولت إخفاء ارتباكها بالذهاب إلى حقيبة الطعام لتجهيزه. وذهبت "سلمي" لإيقاظ البقية، وساعدت "ليئة" فيما تقوم به، وجلسوا جميعاً حول النار يأكلون ويسامرون الصغار، حتى كانت الساعة التاسعة فقرروا المغادرة.

كان الطريق وعراً، خاصة على الأطفال الصغار. خمسة أطفال تتراوح أعمارهم بين السابعة والثالثة عشرة، يسرعون أحياناً ويبطئون أحياناً

ويجلسون للراحة قليلاً. وكان "دان" يحاول تجنيبهم المرتفعات حتى لا تكتشفهم أي دوريات. ودائم التنبيه على الصغار بألا يحدثوا أي صوت. أما "ليئة" فقد كانت ترقب زوجها باستمرار، فقد كان هناك تحولاً في شخصيته، من وجهة نظرها كان للأفضل، خاصة وأنه كان يرتبك فيما مضى من أي سؤال مفاجئ ولا يحسن التخطيط. ولكن الآن الأمر مختلف، فهو خائف ليس على نفسه ولكن على كل من معه، خاصة الأطفال. وعملت كل من "سلمى" و"جهاد" على مراقبة "ليئة" وزوجها عن كثب، فقد كانتا تشعران بأنهما غير طبيعيين، وأن هناك أمر ما يخفونه عنهم.

قطع صوت "دان" خيط أفكار "سلمي" حينما صاح فيهم، قائلاً:

- سوف نمر على منطقة مكشوفة الآن، لا توجد بها أماكن للحماية سوى صخور وأشجار، وهي ليست حماية جيدة لمجموعتنا، يجب أن نكون حذرين جدا ونحن نمر خلالها.

ترمقه "سلمى" بنظرة حذرة، وتسأله:

- كيف عرفت طبيعة المكان بتلك الصورة؟

ترد عليها "ليئة":

- ألم أقل لكِ أننا من البقيعة، إنها بلادنا، وقد نشأنا في عكا ونحفظها عن ظهر قلب.

- حسن يا "رغد" لم أقصد من كلامي شيئاً، إنه للاطمئنان فقط، فهؤلاء الأطفال أمانة في عنقي، ويجب تحقيق كل سبل الأمان لهم.

تخرج "سلمى" سلاحها ببطء وتضعه في حزامها وتغطيه دون أن يلحظ ذلك أحد، وتشير إلى "جهاد" لتفعل مثلها، وتعطي الأخيرة للأطفال تعليمات بعدم الابتعاد عنها وعدم الكلام والصراخ. في الوقت الذي أشار فيه دان إليهم ليتحركوا، وكان الطريق طويلاً ومكشوفاً، سوى من بعض أشجار متناثرة يتخللها بعض الصخور الكبيرة الحجم التي لا يستطيع الاختباء خلفها إلا واحد أو اثنين فقط.

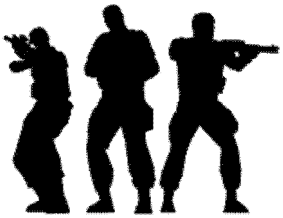

(٩)

إلا الأقصى

في حديقة أمام المتحف الحربي بالقدس.. لا يزال الحفيد يسمع من جده ذكرياته في معارك تحرير الأراضي المحتلة، وكانت ترتسم على وجهه علامات الذهول مما يسمعه. لم يكن يعرف أن جده صلاح الدين من أهم أبطال تلك الحرب.

كانت ملامح جده تتسم بالجمود والشجن. علامات الزمن حفرت لنفسها طريقا على وجهه العجوز، وقد استمر في سرد أحداث الحرب لحفيده، وهو يستند إلى كتفيه بحنان بالغ.

- أصبحت القوات الصهيونية تتعرض لهجمات في كل وقت، وكان هناك العديد من الفرق العسكرية في أنحاء فلسطين. أصبحت المباحثات السياسية عاجزة، تعلم العرب أخيرا أن لديهم من القوة ما يستطيعون بها مواجهة أية قرارات تعسفية من المجتمع الدولي. لقد فوجئ العالم بثمرة اتحادنا.

- ولكن لماذا لم نتحد قبل ذلك يا جدي ؟

- بني.. كانت هناك مشاريع وحدة كثيرة، إلا أنها كانت تفشل بمجرد إعلانها. فقد كان كل فصيل منا يبحث له عن فرصة للسيطرة على بقية الفصائل، وجعل كلمته هي العليا، بل وصل الأمر إلى استهداف فصائل المقاومة لبعضها البعض، بدلا من الاتحاد معا ضد الصهاينة.

- ولماذا كانت مواقف البلاد العربية سلبية تجاه تلك التصرفات ؟!!

- لأن كل دولة كانت تريد أن تكون لها الكلمة العليا أيضا يا بني.

- وكيف استطعنا في النهاية تحقيق الوحدة ؟!

- أدرك العرب أخيرا أن إنشاء قوات مسلحة عربية مشتركة هو الحل الأمثل لمواجهة كافة المشاكل التي حدثت بعد ثورات الربيع العربي، وأصبحت القيادة العسكرية العربية في يد جامعة الدول العربية، وكان قائدها يعين بقرار منها، وفتحوا باب التطوع في تلك القوات، وقضوا فترات التدريب في معسكرات تناثرت في كافة البلدان العربية، ورأوا أن ذلك يعد فرصة للتقارب والتدريب المشترك، وفهم كل منا للآخر أكثر من ذي قبل.

- بالتأكيد يا جدي، فهذا يقلل الكراهية والأحقاد بين الشعوب، خاصة وأن المستوى الاقتصادي كان متفاوتا بين البلاد العربية آنذاك. إن ذلك يثير مشاعر التعالي أحيانا.

- أصبت يا بني.

- وماذا بعد يا جدي ؟!

- اتحدنا بعتادنا وأهدافنا ومبادئنا. حاربنا في كافة الاتجاهات. كانت حربنا السياسية هي الأهم، فنادينا باتخاذ قرار حاسم، واندلعت التظاهرات تطالب بالحرب، ضغط الشعب العربي على الحكومات، التي انصاعت في النهاية لرغبتنا، واختلفنا في حربنا عن أي حرب حدثت في تاريخ البشرية.

- كيف يا جدي ؟!

- بني.. لقد قامت الكثير من المعارك في تاريخ البشرية، في فيتنام والبوسنة والصومال وأفغانستان والعراق، حتى الحربين العالميتين. كل تلك الحروب قامت لأطماع إما سياسية أو اقتصادية، ولكن حربنا كانت حرب الثأر للتاريخ والأرض. للبشر والحجر. حرب اشتركت فيها آلاف من أرواح شهدائنا. إنها حرب الكرامة التي كان هدفها الرئيسي وضع الأمور في نصابها. حرب قامت لتسترجع للعربي روحه المسلوبة.

- أعلم يا جدي أن شعبنا العربي عاش طيلة سنوات في حلم كبير. حلم اليوم الذي تستطيعون فيه الصلاة في الأقصى دون إهانة، ولكن القرار جاء متأخراً جداً بعد أن أهدرت دماء الآلاف.

- نعم.. نعم.. أنا معك أنه جاء متأخرا جدا، ولكن المهم أنه تقرر في النهاية أن نعمل على استرجاع كرامتنا مهما كانت العواقب.

- معك حق يا جدي. ولكن بالتأكيد هناك ظروف هيأت لتلك الاستجابة من الحكومات العربية.

- بالطبع هناك ظروف هيأت لذلك، فقد تغيرت أنظمة بعض الدول العربية نتيجة ثورات الربيع العربي، وحاول قادة النظم الجديدة كبح جماح الثورة وإعادة الأمور كما كانت عليه، ونجحوا في ذلك لسنوات، إلا أن غرورهم صور لهم أن الشعوب لن تثور بعد أن رأوا الخراب والإرهاب والانهيار الاقتصادي الذي تسببت فيه الثورات المضادة للربيع العربي. ولكن هيهات، فقد ثارت كل الشعوب العربية من جديد واستطاعت هذه المرة أن تنجح في تأسيس نظم سياسية رشيدة حاولت معالجة أخطاء

الماضي. لقد تبنى معظمها خطاباً معادياً للغرب إزاء مساعدتهم للإرهاب والصهيونية. بل أن بعض الحكومات هددت بمقاطعة شاملة لبضائع الغرب لن تنتهي إلا برفع يد دول الغرب من أجندة الشرق الأوسط كله.

- وماذا حدث ؟ هل استجاب الغرب لذلك سريعاً ؟

- بالطبع لا ؟ فقد أخذت المسألة وقتاً طويلاً وسط لعبة قط وفأر برعوا فيها مع العرب كثيراً. ولكن في النهاية عرف الغرب أن خسائرهم أصبحت أكثر بكثير من مكاسب دعمهم لتلك الكيانات البغيضة، فتركوها وحدها تعاني. وقد أخذت كثير من الدول حذو العرب في إجراءات متشددة ضد الصهيونية، لتسببها في ضرر بالغ لها بسبب تجارة المخدرات والسلاح التي يتزعمها اليهود في كل بقاع العالم.

- وهل تأثر الصهاينة فعلا بكل هذا ؟

- نعم.. كان تأثير تلك الأحداث عليهم كبيراً، فلقد توقفت الهجرات الاستيطانية إلى الأراضي المحتلة فجأة. كذلك بدأ الصهاينة في تهميش بعض الطوائف اليهودية واعتبارهم ليسوا مواطنين، وليس لهم أي حقوق، فأصيب المجتمع الصهيوني بالصدمة والخلل.

- وما هي تلك الطوائف يا جدي ؟

- طوائف كثيرة كان أبرزها يهود الفلاشا، الذين تركوا بلادهم الإفريقية ليستوطنوا الأرض المحتلة، ولكنهم فوجئوا بمعاملتهم كخدم، وليسوا كمواطنين، حتى أن الحاخامات اليهود اعتبروهم ليسوا يهودا، بل والإعلان عن ذلك رسمياً. وكان ذلك ليس بجديد عليهم، ولكنهم تعنتوا

أكثر بعد الضرر الاقتصادي والسياسي الذي أصابهم من جراء إجراءات العرب ضد الكيان الصهيوني والغرب.

- وهل كان ذلك من الأسباب الرئيسية لحربنا يا جدي ؟

- بالطبع لا، ولكنه كان أحد الأسباب.

- وما هي الأسباب الأخرى ؟ لقد شوقتني كثيرا لأعرف.

- سأخبرك.

- كلي آذان صاغية. أريد أن أعرف كل شيء.

- إن المجتمع الصهيوني في السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين يا ولدي، كان يعاني من فقدان حاد في القدرة البشرية، وفوجئ العالم بأن اليهود يهاجرون من الأرض المحتلة. بل أن أغنياء اليهود كانوا يدخلون أبنائهم مدارس وجامعات خارجها، وكان ذلك مؤشراً خطيراً..

- أتعرف يا جدي. إن ذلك يذكرني بانهيار الممالك الصليبية في العصور الوسطى، حينما توقفت الهجرات إلى ممالك الشرق وتوقف الاستيطان فجأة، مما عجل بسقوط تلك الممالك بسرعة.

- أصبت يا بني، وتبخرت تلك الممالك، ولم يبق منها أي أثر يذكر.

- وهل توقف الهجرات إلى الأرض المحتلة كان سبباً قوياً للانهيار بعد أكثر من خمسين عاما على تأسيس الدولة اليهودية ؟

- وهل خمسين أو مائة عام تعد مقياسا لاستمرار دولة أو نهايتها يا بني ؟ لقد توقفت الهجرة، وبالتالي الفاقد في القوة البشرية لا يتم تعويضه، خاصة

وأن المقاومة أصبحت على أشدها، وانتفض شباب فلسطين انتفاضة أكثر من مرة. لقد كان المحتل الصهيوني يتكبد خسائر بشرية بالعشرات كل يوم.

- نعم.. نعم.. فهمت، ولكن بالتأكيد كانت مؤشرات الموقف الصهيوني الداخلي واضحة قبل ذلك بسنين، فلماذا كانت الحكومات العربية القديمة تتخاذل في مواجهتهم ؟

- بني.. هذا سؤال يحتاج إلى أيام وشهور للإجابة عليه، ولكن كل ما أستطيع أن أقوله لك، أن رؤساء العرب خذلوا شعوبهم بالاستكانة وأسر العروش والخوف. وأصبح على بعضهم أن يتفاوض مع اليهود ويهادن دولتهم المزعومة. بل كان منهم من يتعاون معها في كافة المجالات. ومنهم من ادعوا بأنهم يحاولون حقن دمائنا بألا نتورط في حرب ليست محسوبة النتائج. ربما كانوا على صواب يقتادون بما فعله رسول الله ﷺ حينما كان يهادن أعدائه من الكفار أحياناً، أو المسيح عليه السلام الذي قال: (طوبى لصانعي السلام).. وربما لا.

- ولكن.. ماذا حدث يا جدي لتتخذ الحكومات الجديدة قرار الحرب فجأة؟! وأنت تقول أنهم كانوا يضيقون الخناق على الصهاينة والغرب. فلماذا الحرب والكيان الصهيوني كان في طريقه إلى الزوال تلقائيا ؟

- أصبت، ولكن حكام اليهود أصيبوا بالجنون من جراء ذلك الحصار الذي أصبح دولياً، وتخيلوا أنهم لو مارسوا بعض القمع ضد ضيوف الله في مساجده، وزيادة استغلالهم لصمتنا رغم ضعفهم الذي كان قد بدأ يلوح في الأفق آنذاك، بل والأدهى أنهم أعلنوا عن مشروع هدم المسجد

الأقصى علنا، ومحو معالم القدس القديمة، لبناء مدينة قدس جديدة عالمية، لقد تصوروا أنهم بذلك سوف يعيدون الحلم اليهودي إلى مساره، وتوهموا أن ذلك سوف يعيد اليهود الذين تركوها. وعملوا على إبادة شاملة لأحياء عربية كاملة، حتى يبنون مستوطنات نموذجية لتشجيع الهجرات مرة أخرى. وهكذا فاض الكيل يا بني.

- نعم يا جدي. أنا لا أحتمل يوماً أن أصحو من نومي ولا أجد المسجد الأقصى، ثاني القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، مقصد المسيح عليه السلام.

- نعم يا بني.. لم نكن سنحتمل ذلك، وعند ذلك فقط كان القرار بالإجماع هو كسر الحواجز والمحاذير، وهددت الحكومات العربية الدول الأجنبية التي كانت تشجع الكيان الصهيوني. ولكن حينما وجد الجميع أن التهديدات السياسية لم تأت بنتيجة أصبح على الشارع العربي أن يتحرك. قامت التظاهرات في كل مكان بالعالم يسكنه العرب.

- ياه يا جدي. أتخيل ذلك المشهد، إنه مهيب..

- نعم.. لقد رفع العرب جميعاً شعارات الحرب. ولم يكن لدى الحكومات العربية سوى الاستجابة لإرادة الشعوب بعد عناد طويل. ورفعنا السلاح، رفعناه باستماتة. وماذا حدث؟ فقدنا مليون عربي، ثلاثة، عشرة. سيبقى منا القليل. لا يهم.

- من الواضح أنها كانت فترة عصيبة.

- كانت ملحمة عربية، وكانت معركتنا بداية حقيقية لتحررنا بعد مئات السنين من الأسر..

شرد ذهن صلاح الدين برهة، إلى أن قاطعه حفيده قائلا:

- أكمل لي يا جدي حكاية جدتي سلمى مع الأسرة اليهودية.

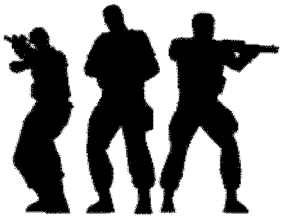

(١٠)

الطريق إلي ترشيحا

يسمع "دان" صوت سيارة تقترب من بعيد، وقد بدأت تلـــوح أضـــواءها في الأفق، فطلب من الجميع الاختباء خلف الصخور، وعدم القيام بأي حركـــة، أو إصدار أي صوت.

كان المكان الذي يختبئون فيه هو الأفضل، فالأشجار متناثرة بكثافة أكثر مـــن أي مكان آخر في المنطقة، وبمر مدق حجري للسيارات بين الأشجار، الـــتي تناثرت الصخور بينها، بحيث حققت بعض الحماية لهم جميعاً، فليئـــة تحمـــل "دافيد" ومعها "أم صلاح" خلف صخرة كبيرة، ويقابلهم من الناحية الأخرى "دان" خلف إحدى الأشجار، وقسمت كل من "سلمى" و"جهاد" الأطفـــال فيما بينهما خلف صخرتين.

تقترب السيارة والجميع يكتم أنفاسه دون حراك. إن أضواءها تزداد وتـــنير المكان من حولهما بقوة. يجاهد كل منهما لإخفاء نفسه قدر المستطاع. وهم لا يعرفون إلى أي جانب تلك السيارة، الجيش الصهيوني أم العرب. وهل هـــي عسكرية أم مدنية.

يرى "دان" أخيراً السيارة بوضوح أثناء مرورها على المدق، ويتلو صلواته في صمت. إنها تابعة للجيش الصهيوني، وعلى متنها حوالي ستة جنود مـــدججين بأسلحتهم، ومزودة بمدفع مضاد للأفراد. من الواضح أنها دوريـــة اعتياديـــة لاستكشاف المنطقة ليلاً. يحاول الجميع ألا يصدر صوتاً أثناء مرورها أمامهم.

تمر السيارة دون أن يكتشف الجنود مكانهم. يتنفس "دان" الصعداء ويحمد الله على نجاتهم. إن السيارة تبتعد، ولكن فجأة صوت "دافيد" يرتفع بالصراخ، ويدعوا الجميع الله ألا يكون الجنود قد انتبهوا إلى صوته وسط هدير السيارة.

توقفت السيارة، ونزل أحد الجنود لاستكشاف المكان، بعد سماعهم صراخ الطفل، ينادي عليه زملاءه أن ارجع إلى السيارة. يتوقف الجندي ويعود إلى الوراء حتى عاد إلى جوار السيارة. يهبط جميع الجنود ويبقى واحد فقط فوقها لحمايتهم بمدفعه، والجميع يترقب الموقف. ويصرخ "دافيد" مرة أخرى حينما أفلتت أم صلاح يدها عن فمه ليلتقط أنفاسه بحرية.

أشار الجنود إلى زميلهم فوق العربة ليطلق النيران نحو الأشجار. كان وبيل النيران رهيباً، وبدأ الأطفال في الصراخ. فأخذت "سلمى" تصيح في يأس بالعبرية، وهي لا تستطيع مغادرة مكانها من وطأة كثافة إطلاق النار نحوهم:

– أوقفوا النيران. هناك أطفال، توقفوا.

يشير إليها "دان" أن تتوقف عن الصياح. كان يحاول أن ينظر إلى مكان زوجته للاطمئنان عليها. شعر بالخوف الشديد على زوجته وابنه. بدأت "سلمى" ومعها "جهاد" في إطلاق النار نحو الجنود في يأس. شتان بين ما يحملونه من أسلحة وبين ما تحمله الفتاتان. فوجئ "دان" بوجود السلاح، ولكنه لم يكن في موقف يجعله يتوقف عند ذلك.

انتهت الأعيرة النارية في أسلحة "سلمى" و"جهاد". ساد الصمت أقل نصف دقيقة، حتى بدأ ثلاثة جنود في التحرك نحو الأشجار للقضاء على المختبئين. كان الثلاثة يشكلون صفاً طولياً على مسافات متباعدة لتغطية أكبر مساحة

ولتقليل المفاجآت. الظلام حالك والرؤية صعبة، على الرغم من أن القمر كان مكتملاً. لكن الغيوم كانت كثيفة وكفيلة بحجب الضوء عن المكان.

ظل الجميع صامتين حتى اقترب أحد الجنود من الصخرة التي تختبئ خلفها "ليئة" وابنها مع أم صلاح الدين. لم يتمالك "دان" نفسه وخرج من خلف الشجرة مغامراً بحياته وركض نحو الجندي، وقفز عليه ممسكاً برأس الجندي وصدم بها إحدى الصخور بقوة، فخرَّ الجندي صريعاً.

كان المشهد سريعاً حتى أن الجنديين قد تسمرا مكانهما، وقبل أن يرفعا أسلحتهما لإطلاق النار مرة أخرى، أسرعت "سلمى" التي كانت تربض في مكان قريب من الجنديين بقذف سلاحها الفارغ بكل ما أوتيت من قوة نحو أحدهما قبل أن يطلق النار على "دان"، فارتبك الجنديين، ونظرا بسرعة ناحية الصخرة التي تختبئ خلفها "سلمى"، فأعطى ذلك لدان فرصة حتى يلتقط سلاح الجندي الصريع ويفتح النيران على الجنديين دون تردد. الأمر الذي أدى بالجنود المحتمين بالسيارة إلى إطلاق النار مرة أخرى نحو الأشجار.

أصيبت جهاد بعيار ناري في قدمها فوقعت إلى جوار الصخرة التي كانت تحتمي بها. ركض "دان" بسرعة وسط وابل الطلقات النارية إلى موقعها، ولم ينتبه إلى أن زوجته تنادي عليه مستغيثة باسمه الحقيقي. وصل إلى "جهاد" ليسحبها سريعاً خلف الصخرة حتى لا تصاب بأعيرة أخرى في جسدها، ونظر إلى الجرح سريعاً وقال لها:

– تمالكي نفسك فالجرح سطحي، حاولي أن تبقي مستيقظة.

حاولت "سلمى" الوصول إلى سلاح أحد الجنود الذين قتلهم "دان"، ولكن دون جدوى. إن إطلاق النار كثيف جدا نحوها.

نادى "دان" على "سلمى" وأشار لها بأنه سيقوم بتغطيتها ببندقيته حتى تستطيع أن تلتقط البندقية الملقاة على الأرض أمامها. وبالفعل أطلق نيران بندقيته نحو السيارة التي احتمى الجنود خلفها، وكان الجندي الذي يطلق من مدفع السيارة محتميا منه خلف أحد السواتر الحديدة المثبتة على السيارة.

بدأت "سلمي" في إطلاق النار نحو السيارة باحترافية أدهشت "دان"، الذي ركض أثناء انشغال الجنود بالاحتماء من طلقات "سلمى" خلف السيارة نحو الصخور واحدة تلو الأخرى متستراً بالظلام، حتى أصبح خلف الجنود، وبدأ يطلق النيران نحوهم هو الآخر، فأصبحوا محاطين بالموت من كل اتجاه. أصيب قائد السيارة والجندي أعلاها من طلقاته، كما أصابت "سلمى" أحدهم، واستسلم الأخير ملقياً سلاحه وانبطح أرضاً.

اتجهت "سلمى" نحو السيارة متأهبة لأي مفاجأة. هزت أحد الجنود للتأكد من موته، وحصلت منه على خازنة طلقات لبندقيتها. وفي نفس الوقت تمالكت "جهاد" نفسها ووقفت على قدميها مرة أخرى، وأخذت سلاح من أسلحة الجنود الملقاة على الأرض، وذهبت نحو السيارة. وكان "دان" قد أسدل سلاحه إلى جانبه، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة من كثرة الركض والحماسة التي انتابته، إلا أن الجميع فوجئوا بأن كل من "جهاد" و"سلمى" ترفعان أسلحتهما في وجه "دان"، وأمرته الأخيرة بإلقاء سلاحه والجلوس على الأرض.

سألها "دان" بتعجب عما تفعله:

- سلمى، ماذا تفعلين ؟

- اصمت، اسمك "دان" هاا، لماذا خدعتنا ؟

- لم أخدعكم، ولكني كنت أتجنب فهمكم لنا بشكل خاطئ، وكنت سأخبركم الحقيقة حينما نصل إلى مكان آمن.
- نتجنب فهمك بشكل خاطئ. أم أنك خائف منا ؟
- افهمي يا "سلمى"، أنا الذي كنت أحميكم، وقاتلت يهودا أمامكم ودافعت عنكم.

تضحك "سلمى" بسخرية وتصيح فيه:

- لصالح من تعمل ؟ الموساد، أم العصابات الصهيونية ؟
- لا هذا ولا ذاك صدقيني. أنا مواطن عادي هربت لحماية زوجتي وابني الصغير. قابلتكم وأخفيت الحقيقة حتى لا نرتاب لبعضنا، ونحن نقابل مصير واحد.

يقطع كلامه صوت إطلاق عيار ناري من سلاح التقطته "ليئة" في غفلتهم أثناء نقاشهم الحاد. لقد أطلقت النار على رأس الجندي المستسلم ليموت على الفور. سجدت "ليئة" تبكي وتنتحب، وتصيح فيهم جميعاً:

- ماذا فعلنا لكل ذلك ؟ لماذا تتجنون علينا هكذا ؟ نحن نريد أن نعيش في سلام. رفضنا أن نقاتل في صفوفهم وهربنا وكنا سنموت سويا. ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ إن ولدنا يحتاجنا نحن الاثنين. لماذا كل هذا الهراء ؟ أتركونا نلقى مصيرنا هنا واغربوا عن وجوهنا.

تتجه "أم صلاح" ناحية "ليئة"، احتضنتها وربتت على رأسها، ومسحت وجهها بيديها باكية كأم فلسطينية حنون، وقالت لها: ما اسمك ؟

- "ليئة". اسمي "ليئة"

- ليئة ؟ على اسم زوجة سيدنا "يعقوب" عليه السلام. لا تخافي، سنحمي ولدك وزوجك حتى لو متنا جميعا من أجلكم.

نظرت الأم إلى "سلمى" وبدلت نظراتها الحانية إلى صرامة قاسية، وأمرتها بخفض سلاحها، وأشارت إلى "دان" بالوقوف. فما كان من "سلمى" إلا أن أطاعت خالتها دون تردد، فهي تثق في حكمها على الأمور.

ذهب "دان" إلى السيارة للبحث عن حقيبة إسعافات، فوجدها بعد عناء، وأسرع إلى "جهاد" ليضمد جراحها مع "سلمى" التي كانت لا تزال تنظر إليه بريبة. فما كان منه إلا الابتسام لها دون أن ينطق بكلمة، ثم تركهما وذهب إلى السيارة مرة أخرى واعتلى صندوقها، وحينما رأته "سلمى" يصعد إلى السيارة ويمد يده إلى مدفعها، أسرعت إلى بندقيتها متحفزة لقتله.

تجاهل "دان" ما تفعله "سلمى"، وقام بخلع المدفع من مكانه، ووضع على كتفه حزامين من الأعيرة النارية الخاصة به، ثم هبط من السيارة ليتجه إلى الجنود حتى يحصد ما معهم من القنابل اليدوية والبنادق الخفيفة والمسدسات، وهو غير منتبه إلى مراقبة زوجته له، وهي مندهشة من أسلوب إدارته للأمور. وحينما انتهى من جمع ما يحتاجه من سلاح، اتجه نحوهم ليساعدهم في جمع أغراضهم استعدادا لمغادرة المكان، ونظر إلى "أم صلاح" التي كانت تحمل "دافيد" وشكرها على ما فعلته معه هو وزوجته، فما كان منها إلا أن نظرت إليه بحنان وربتت على كتفه.

انتهى الجميع من تجهيز أنفسهم لمغادرة المكان، وبدأوا يتحركون سريعاً، وقد بدأ الظلام ينقشع لاقتراب شروق الشمس. كان الموقف قد تغير، فبعد أن كانت المسيرة مسالمة، بدوا وكأنهم في مهمة حربية. "سلمي" و"جهاد" حملت

كل منهن بندقية آلية، بالإضافة إلى حقائب السفر على ظهرهن. كذلك "ليئة" حملت حقيبتها وفي يدها مسدساً آلياً وحول خصرها حزام به خنجر وبعض القنابل اليدوية. أما "دان" فقد كان منظره ملفتاً للنظر. حيث كان يحمل حقيبة ثقيلة على ظهره والمدفع المضاد للأفراد على إحدى كتفيه.. والكتف الآخر علق عليه بندقية آلية وحزامين للرصاص، وحول خصره حزام ثبت فيه بعض القنابل اليدوية، وتولت الأم لملمة الصغار والسيطرة عليهم.

كان مشهدهم يوحي بأنهم لا يرغبون في تكرار مشهد ضعفهم أمام أية قوة تواجههم مرة أخرى، فاستعدوا بصورة مبالغ فيها، وحينما بدأ موكبهم في التحرك، توقف "دان" وقام بالنداء على "سلمى"، وقال لها:

- سنصل إلى ضيعة (ترشيحا) بعد نصف ساعة تقريباً، وأظن أنها المكان المناسب للاستقرار ليوم أو يومين، فقد سمعت أن سكانها قاموا بمهاجمة الجنود اليهود فيها وقضوا عليهم. إن بها قوة عربية تحرسها على ما أعتقد.
- ولكنها بعيدة عن الحدود اللبنانية.
- أعلم ذلك. لكنها تقع على جبل المجاهد في الجليل الغربي، وهو مكان مرتفع ويسهل حمايته، والأطفال سيكونون في أمان هناك حتى نجد سبيلا للعبور إلى لبنان.
- وكم تبعد عن الحدود اللبنانية.
- حوالي ٢٥ كيلو متراً إلى الشمال.
- وأنت وزوجتك وابنك ؟

- ماذا تقصدين ؟

- هل ستظلون بأسمائكم اليهودية ؟

- لا أعلم. انتم معنا، ويمكنكم شرح الموقف لأهل الضيعة.

- أعتقد أنكم يجب أن تعودوا لأسمائكم العربية، فأهل الشمال لا يتفاهمون سريعاً.

- كما تريدين.

- إذن.. هيا بنا وليكن الله في عوننا.

❁❁❁

ينظر "صلاح الدين" إلى "سلمى" وهو مبهور بها وبشجاعتها، فتنظر إليه وتعلو على شفتيها ابتسامة رقيقة، وهي تراقب عينيه التي كانت تتفحص وجهها بشوق.

- كانت رحلة شاقة يا حبيبتي.

- نعم.. شاقة وأحداثها لا تصدق، خاصة وأننا اضطررنا إلى تغيير وجهتنا بعد أن وجدنا أن الطرق إلى غزة أصبحت شبه مستحيلة، وكان السبيل إلى تأمين خالتي واخوتك هو التوجه إلى الشمال.

- وماذا فعلتم بعد ذلك ؟ هل وصلتم إلى الضيعة بسلام ؟

- نعم.. فقد وجدنا أن سكانها قد سيطروا عليها، وحصنوا دفاعاتها جيدا. لقد بدت كقلعة حصينة.

- ياه.. صدق القول بأن التاريخ يعيد نفسه.

- ماذا تعني ؟

- أتعلمين أن تلك الضيعة تحولت إلى قلعة حصينة تواجه العصابات الصهيونية خلال نكبة ١٩٤٨.

- كيف ؟

- لقد تسلح أهلها بالبنادق، وصدوا الهجوم العنيف لعصابات صهيون على ضيعتهم، وحينما استعصى على اليهود اقتحامها قاموا باستدعاء الطائرات، ونصبوا المدافع الثقيلة حول الضيعة.

- ياه.. ترى ماذا فعلوا حينئذ ؟

- كانت معركة غير متكافئة، البنادق الخفيفة كانت تواجه الطائرات والمدافع الثقيلة، لقد ألقت الطائرات قنابلها فوق القرية فهدمت بيوتها ومسجدها. كانت الجثث في كل مكان، وحينما فرغت الطائرات من القصف بدأت المدافع في قصفها كل ساعة عدة دقائق كفيلة بإلحاق الدمار بالقرية.

- كانت ساعات عصيبة.

- بل أيام.. لم يكن ليتجرأ أحد من عصاباتهم على اقتحام القرية، على الرغم من دمارها. كان شباب القرية يدافعون عنها بأرواحهم، وحينما دخلها الصهاينة، لم يجدوا سوى خمسين شخصا من الشيوخ والعجائز داخل كنيستها.

- إن صمودهم يسجله التاريخ.

- لقد كانت ملحمة اختتمت أحداث النكبة. فقد كانت آخر ضيعة تسيطر عليها العصابات الصهيونية في الحرب.. ولكنك لم تخبريني يا سلمى، أبقيتم كثيرا في القرية ؟

- حينما دخلنا القرية كان الجميع ينظرون إلينا حذرين في حالة من التأهب. إن مشهدنا كان مذرياً، نحمل السلاح وكأننا كنا في معركة، ولكن أهل القرية حينما لمحوا الأطفال معنا هدأت شكوكهم (تضحك سلمى) لقد كان "دان" يبدو وكأنه قائد عملية عسكرية، وهو مدجج بسلاح ثقيل كأبطال الأفلام الأمريكية، والأمر الطريف أنه حينما دخل القرية صعد إلى أعلى منزل فيها وثبت مدفعه وربض مع شباب الضيعة للدفاع عنها في حال هجوم الصهاينة.

- وهل تعرَّف إليه أحد من القرية ؟

- لا.. لقد أخفينا أمره. إن هيئته عربية، ويتحدث لغتنا بطلاقة هو وزوجته. وقد تركتهم بعد أن اطمأننت على أنهم جميعاً بأمان، وبعد أن أخذت عهداً على مختار الضيعة بأن يصلوا إلى لبنان بسلام، خاصة وأن القوات اللبنانية قد سيطرت على المنطقة الشمالية من عكا، وأصبح المناخ آمناً لكي أتركهم وأعود إليكم.

- حسنٌ فعلتِ.. لم يكن سيفعلها غيرك.

- شكراً يا حبيبي.

أمسك "صلاح الدين" بيدها في صمت لفترة طويلة، وهما يشاهدان الغروب معا، حتى أظلمت الدنيا من حولهما، فقاما دون أن يفلتا أيديهما، وسارا معا إلى المعسكر في صمت.

(١١)

ليلة في المقبرة

بعد أن تركني الرائد طارق عند صخرة الآلام، وفي الموعد المحـــدد للمهمـــة ذهبت منفردا ودون سلاح، كما اتفقنا إلى نقطة التمركز. كانت الساعة قـــد اقتربت من التاسعة مساء ليلة مقمرة، لا يتوقع العدو فيها أية هجمات أرضية من الجيش العربي على مواقعه.

وعلى حسب المتفق عليه توجهت إلى شارع صلاح الدين بالقرب من بـــاب الساهرة، وكان الرائد "طارق" في انتظاري. وقفنا نتبادل أطـــراف الحـــديث لوقت قصير حتى وصل بقية الفريق ما عدا سلمى. وعلى الرغم من إصراري بعدم انتظارها، والبدء في العملية حتى لا تقع أي مفاجآت نتيجة التأخير، إلا أن "طارق" أصر على انتظارها.

كان "طارق" يعلم أنني أحب "سلمى"، وأن الهجوم العربي على أعداء الأقصى كان سببا سعيدا لتأخير زواجي بها، وأن رغبتي في البدء بدونها هو من قبيـــل القلق عليها وحمايتها، فربما تتجنب الخطر إذا بدأنا بدونها. ولكنـــها تـــأخرت بالفعل، وازداد قلقي عليها، وفي نفس الوقت لم أعد أطيق انتظار بدء العملية كثيرا، فعرضت على الرائد "طارق" بدء التحرك لكي لا تفسد مهمتنـــا مـــع اقتراب الساعة من العاشرة والنصف مساءا. لكننا نحناها تقترب من بعيد.

- أعتذر عن التأخير.. لقد فعلت ما طلبته مني يا سيدي. كل الأسلحة التي سنحتاجها موجودة في أماكنها، ولن يجدها أحد غيرنا، وأنا منذ الصـــباح منشغلة بذلك الأمر.

- أثق في قدرتك يا سلمى (وينظر إلى صلاح الدين، ويستطرد) والآن أيها البطل فلنبدأ على بركة الله، سأشرح لكم الخطة.

يرمق صلاح الدين الرائد "طارق" بنظرة اندهاش، ولكنه يقدر ويحترم التقاليد العسكرية. فليست كل تفاصيل العملية يجب أن يعرفها الجميع، وحتى "طارق" نفسه لا يعرف كل التفاصيل، والذي استمر قائلا:

- تعلمون أن عملية الليلة من العمليات التي يتعلق بها مستقبل عملية قلب الصقر.. وعمليتنا الليلة التي أطلقنا عليها رمزيا اسم عملية الحساب هي بداية لسلسة مهام سنقوم بها في الأيام القادمة في حالة نجاحنا الليلة (ويوجه حديثه إلى سلمى) سلمى، هل خبأتِ كل الأسلحة في الأماكن المحددة لها كما اتفقنا.

- نعم سيدي.

- حسنا.. سيتوجه الآن كل من صلاح الدين وحسون وعامر وسلمى إلى مقبرة الساهرة. جنود الأعداء يتمركزون في أماكن متفرقة من المقبرة، لتكوين نقطة دفاعية ضد أي هجوم على معسكرهم الذي حل محل موقف الحافلات الذي تطل عليه المقابر. ومهمتكم فتح ثغرة للمرور داخل المقابر والسيطرة على تلك المنطقة المرتفعة. وبذلك يمكن للمجموعة الثانية عمل ثغرة في المعسكر الصهيوني، وتهريب الأهالي المحتجزين في المبنى الإداري للحافلات، ثم علينا الانتظار حتى قدوم القوة الجوية للإجهاز عليهم.

- ولكن كيف سنتعامل معهم بدون سلاح.

- ستجد سلاحك يا صلاح. الحركة قليلة الآن فلنتحرك على بركة الله.

يتحرك صلاح الدين ومجموعته بسرعة ورشاقة إلى بوابة مقبرة الساهرة، وتتوقف سلمى فجأة، وتشير إلى صلاح الدين وحسون وعامر ليتوجها إلى جانبي الباب من الخارج، ودون تردد نفذا الأمر. وقف صلاح الدين إلى جانب الجدار ينتظر إشارة سلمى بالتحرك. ولكن سلمى جلست مستندة بركبتها إلى الأرض تنظر إلى ساعة يدها باهتمام. وفجأة أخرجت خنجرا وقذفته نحو صلاح الدين. فوجئ صلاح الدين بجندي صهيوني يسقط على أول درجة من درجات سلالم المقبرة من أسفل إلى جواره. فأمسك به سريعا وسحبه إلى جوار السور وألصقه به.

أسرعت سلمى بالوصول إلى باب المقبرة، وأشارت إليهم بالدخول، فنظر إليها صلاح الدين نظرة إعجاب وأشار إليها بحركة مسرحية أن تتقدم أولا. فأسرعت سلمى بدخول البوابة، ولكن بعد بضعة درجات أشارت لهم بالتوقف، ومدت يديها إلى داخل حفرة أسفل الجدار وأخرجت مجموعة من الخناجر وأعطتهم إياها.

صعدت المجموعة بحذر شديد وخطوات محسوبة، وأشارت سلمى لعامر وحسون بالتوجه إلى اليمين، وأمرهم بالتعامل مع القوة الصهيونية بحذر ودون ضجة وعدم الاستيلاء على أسلحة العدو النارية. توجهت هي وصلاح الدين إلى اليسار، وكانت خطتها أن يلتقي الجميع أعلى المقبرة، وبذلك يعملون على تفريغها من الصهاينة دون ضجة.

- لم أعلم أنك ماهرة إلى هذا الحد يا حبيبتي.

- أصمت يا صلاح الدين واخفض صوتك، هناك جنديين يجب أن نتعامل معهما في نفس الوقت.

- حسنا يا سلمى، هاتِ خنجرك.

- هاك خنجري، ولكن ماذا ستفعل ؟

- انتظري هنا.

تحرك صلاح الدين بين شواهد القبور بحرص حتى اقترب من موقع الجنـــديين، ومع كل خطوة يرمق سلمى بنظرة سريعة ليطمئن عليها، وحينما اقترب بمـــا يكفي قذف بالخنجرين مرة واحدة في اتجاههما، فاخترق واحد عنق أحـــدهما والآخر ذهب إلى صدر الثاني في نفس الوقت. فأسرعت إليه سلمي ولم تتفوه بكلمة، أخرجت خنجرها من عنق الجندي وسحبته لتخفي جثمانه خلف أحد اللحود، وفعل صلاح الدين بالآخر مثلها. وما أن انتهيا وبـــدءا في التحـــرك حتى وجدا أربعة جنود في منتصف المقبرة، وكانوا لا يتفرقون. حاول صـــلاح معرفة موقف عامر وحسون لكنه لم يستطع، وبعد أن فكر قليلا أخبر ســـلمي أنه سيتعامل معهم وحده، فرفضت وقالت له:

- يبدو يا حبيبي أنك مثلنا، لا تمتلك إلا يدين، فكيف تتعامل مع أربعة جنود مدججين بالسلاح. لا تقلق هناك خطة لذلك. هيا بنا.

تحركا بحذر إلى نقطة الالتقاء في أعلى المقبرة، ووجدا عامر وحسون إلى جوار ستة جثث لجنود آخرين، فقال لهم صلاح الدين بإعجاب:

- يبدو أن كل منكما يمتلك ثلاثة أذرع.

- شكرا على هذا الإطراء، وهناك أيضاً اثنين بجوار السور هناك.

- أنت بطل مغوار يا عامر (ثم وجه حديثه إلى سلمى) إذن. فلتشـــرح لنـــا سلمى خطتها للقضاء على الأربعة جنود في منتصف المقبرة.

- خطتي تتلخص في القضاء على الجنود الأربعة مرة واحدة، وبالطبع استخدام الخناجر في هذه الحالة يمكن أن يؤدي إلى كارثة لأن المسافة ستكون كبيرة، وهكذا فلن يصلح إلا السلاح الناري.

- ولكن صوت الطلقات سوف يحذر القوة الإسرائيلية المتمركزة في موقف الحافلات.

- لا تقلق يا صلاح الدين، ففي أسفل المدفع القديم هناك سنجد ما نحتاج.. هيا قبل أن ينتبه إلينا الجنود.

اتجه الأربعة إلى المدفع القديم أعلى مقبرة الساهرة، وأخرجا حقيبة بها أربعة مسدسات بكواتم صوت، كانت سلمى قد أخفتها بمهارة، واتفقوا على حصار الأربعة جنود وإطلاق النار عليهم في توقيت مناسب بإشارة محددة يصيب كل منهم جندي واحد ويقتله سريعا بطلقة أو اثنتين على الأكثر، فيسقط الأربعة مرة واحدة. ولكن عامر خاف من نسبة خطأ قد تحدث، خاصة والمسافة طويلة، بالإضافة إلى أن التصويب ليلا تقل نسبة دقته، حتى لو كانت الليلة مقمرة، فأشار عليهم أن يقوم بالمهمة وحده، حتى لا يخاطرون بأنفسهم أثناء محاولتهم الاقتراب من الجنود، فيجيبه صلاح الدين:

- كيف يا عامر إنهم أربعة جنود وأنت واحد فقط.

- صديقي. هاتِ مسدسك وأنا كفيل بهم.

- لا مفر. لن نتشكك في قدرات بطل العالم في الرماية، خذ مسدسي (ومازحه قائلا) ولكن أعده لي لا ينقص طلقة واحدة.

يراقبون عامر من بعيد، وهو يتسلل برشاقة ليقترب من الجنود، وللحظات كان يمكنه إصابتهم من الخلف، لكنه التف حولهم دون أن يشعروا به حتى

أصبح في مواجهتهم. كانت طلقاته سريعة حتى أنهم شعروا أنه أطلق رصاصة واحدة، ولكن الأربعة سقطوا سريعا.

أسرعت سلمى إلى باب المقبرة لإعطاء إشارة إلى الرائد طارق، فأسرع مع مجموعته بالصعود إليهم، وذهب صلاح الدين وحسون إلى عامر، وقبل أن يتفوه صلاح بكلمة وضع عامر سلاحه في يديه، وقال له وهو يرمقه بنظرة فخر:

- طلقاتك كاملة..

نظر إليه صلاح الدين مبتسما، فقد وجد أن عامر لم يستخدم إلا مسدسه في إصابة الجنود الأربعة، ثم أسرع مع سلمى وطارق للتمركز على تبةٍ عالية تطل على معسكر الصهاينة. جلست سلمى إلى جواره لمراقبة حركة الجنود. وانشغل طارق بمحاولة الاتصال بقيادته لاطلاعهم على ما تم ومعرفة الخطوة التالية. كان قلقا لأن الوقت يمر وقد يكتشف الأعداء ما حدث بالمقبرة. فقد مرت ثلاث ساعات منذ أن سيطروا عليها. وعامر وحسون يراقبان مدخلها تحسبا لقدوم أي جنود آخرين. وكان إلياس على الجهة الجنوبية من المقبرة ينظر إلى كنيسة القيامة التي تظهر قبتها أمامه ويراقب الطريق أسفل التبة.

يترك صلاح الدين موقعه ويتجه إلى الرائد طارق الذي يبدو مرتبكا.

- طارق.. ما بك ؟

- لا شيء أحاول فقط الاتصال بالقيادة ولكن دون جدوى. الإشارة تتقطع ولا أستطيع التواصل معهم. قناة الاتصال الوحيدة حاليا مع النسور.

- وما العمل ؟

- إذا لم أستطع الاتصال بالقيادة سألغي العملية وسنعود.

- لا يا طارق. يمكننا القيام بها دون توجيهات منهم. فلنفعلها والله معنا.

- مستحيل. ماذا تقول؟ لا يمكنني التضحية بكم.

- ومما أنت خائف، ولم نفشل في مهماتنا من قبل ؟!!

- لأن نجاح العملية يعتمد على جدول محسوب. القضاء على النقاط الدفاعية، وهذا فعلناه. ولكن الأهم هو الإذن ببدء العملية الأرضية وتهريب الأسرى قبل الهجوم البري. وضباط الاتصال هم همزة الوصل بيننا وبين القيادة التي ستعمل على التشويش على أجهزة إنذارهم الإليكترونية ونحن نقوم بالهجوم، لكي لا يمكنهم تحذير جنودهم القريبين وتصبح مذبحة للمدنيين المحتجزين.

- معك حق. إذن سوف ننتظر حتى يأذنوا لنا، وأتمنى أن يسرعوا في ذلك لأن الساعة قاربت على الثانية بعد منتصف الليل. ويجب أن ننتهي منها قبل حلول الصباح وعودة النوبة الثانية من الحراسة.

- بمشيئة الله. سوف أحاول مرة أخرى.

يتركه صلاح الدين ويعود إلى سلمى. كانت منبطحة على الحشائش التي نبتت على حافة التبة، تطل على المعسكر وتحاول دراسته. كان المعسكر احترافيا لدرجة مذهلة، من المعسكرات التي يصعب اقتحامها. ليس لتحصينه الجيد فقط، ولكن لضيق مساحته، ونقاط دفاعاته القريبة من بعضها البعض. صحيح أن المقبرة تعد أهم تلك الدفاعات، ولكن في الأسفل الأمر كان في غاية الصعوبة والتعقيد.

إن إدارة موقف الحافلات يحيط بها سياج أمني صعب، ويحصنه الجنود تحصينا جيدا. يعتمد الجنود على الدروع الفولازية لحماية تجمعاتهم، وعلى جدران مبنى إدارة الحافلات هناك عبوات ناسفة (سي٤) شديدة الانفجار.

- سلمى.. أنظري هناك، إنهم يحيطون كل أركان المعسكر بالصفائح الفولازية وكتل الإسمنت، ولكن لماذا يحيطون مبنى الإدارة بكل تلك المتفجرات.

- لا أعلم، ربما لقتل الرهائن عند اللزوم.

- انتظري.. لقد اعتدت أن يفاجئنا اليهود دائما بغير ما نتوقع. لماذا لا نفترض أن الأسرى ليسوا بداخل مبنى الإدارة، وأنهم في ذلك المنزل.

- ماذا تقصد ؟

- انظري من خلال المنظار إلى هذا المنزل، إن العبوات الناسفة الملتصقة بجداره من النوع المحدود الانفجار. وتلك الحافلة التي تقف بجوار بابه عليها حراسة مشددة داخلها وخارجها. لماذا لا تكون بالقرب من باب الإدارة لنقل الأسرى في حالة أي هجوم عربي ؟

- ولماذا وضعوا المتفجرات حول الإدارة ؟ ما كل هذا العدد من الجنود حوله !!

- ربما لخداعنا، وربما لشيء آخر، ولكن الأسرى بالمنزل وليس بمبنى الإدارة. أنا متأكد أنهم يحاولون خداعنا.

- حبيبي. أنظر إلى اليسار عند المسجد الأدهمي، هناك نقطة حراسة قريبة من المنزل. ألا تلاحظ شيئا ؟

- نعم.. توجد حافلة أخرى خلف المنزل بالقرب من الباب الخلفي بحراسة مشددة عليها أيضا، وكذلك يوجد أربعة جنود يحرسون الموقع من أعلى المبنى الإداري إلى جوار الهوائي، ولا يوجد أي جندي على سطح المنزل.

- إذا فالعدو قد رتب للأمر جيدا، فإذا فشل تهريب الأسرى من الأمام سينجح في تهريبهم من الخلف، ونقطة الحراسة القوية بجوار المنزل مهمتها عرقلة محاولات تحرير الرهائن.

- نعم، هو كذلك. يجب أن نشرح الموقف إلى طارق في الحال.

يسرع صلاح الدين إلى طارق لشرح ما توصلا إليه من ملاحظات، وكان الأخير يستمع إليه بكل اهتمام، فطبيعته العسكرية تجعله يهتم بالتفاصيل الدقيقة، ويتوقع دائما مفاجآت العدو، وقد كان مبهورا بتلك الملاحظات، حتى أنه سأل صلاح عما يمكن عمله.

- الأمر لك يا طارق. أنت قائد العملية وقائدنا.

- أحتاج إلى رأيك يا صلاح الدين.

- حسنا.. يجب أن نضع خطة جديدة، وفي منتهى الحذر وبسرعة، فالوقت ضيق، ولا يمكننا انتظار أوامر القيادة. الخطة القديمة سوف تعرضنا كلنا للخطر وربما القدس كلها.

- معنى ذلك أننا سنحتاج إلى عدد أكبر من الأفراد حتى تكون العملية سريعة، ولا تثير ضجة تحذر بقية النقاط الإسرائيلية..

تأتي إليهم سلمى بعد أن أشار إليها صلاح الدين، وشرح لها مخاوف طارق، وبعد أن فكرت قليلا قالت:

- نحن الآن اثنا عشر فردا، يمكننا تقسيم أنفسنا بطريقة جيدة لنقضي على هذا المعسكر بكامله، ونحرر الأسرى.

- كيف ؟!

- أتذكران حينما اقتحمنا مخيم قلنديا ذو المساحة الكبيرة، كم كان عددنا آنذاك ؟

- لقد كنا أربعين مقاتل. نعم.. فهمت قصدك يا سلمى. نضع بعضنا هنا لتغطيتنا من أعلى، ونخصص بعضنا للسيطرة على الحافلتين، ومجموعة اقتحام. ولكن ذلك يعد انتحارا، فعدد جنود العدو أكبر، ونحن قلة والمكان ضيق ولا يحقق لنا تغطية كافية.

- عندي بعض التعديلات البسيطة قد تعالج تلك المشكلة، أتسمعونها ؟

يجيبه طارق على الفور:

- وما هي يا صلاح الدين ؟

- بالنسبة للضجة وأصوات القتال فلن تحذر أي معسكر آخر، ولن يفعلوا أكثر من تأمين أنفسهم في الوقت الذي نقاتل فيه هنا، لأن ضجة الحرب لا تنتهي منذ أن بدأت عملية قلب الصقر. أما عن عددنا، فنحن نحتاج إلى إضافة خمسة أفراد فقط، وسنستطيع توفيرهم بسرعة وسهولة.

ينظر طارق إلى سلمى وصلاح وفي داخله هاجس يقلقه من تلك المخاطرة، ولكن الوقت يمر ولا يستطيع الاتصال بالقيادة، فلا يسعه الآن إلا توفير خطة بديلة للاقتحام وتحرير الأسرى. وظل يستمع إلى خطة صلاح الدين ويقوم بتعديلات عليها حتى قرب الفجر. ونظراً لأن استخدام أجهزة الاتصال

اللاسلكي سيعرض العملية للخطر، فقد اتفقوا ألا يستخدموها إلا للاتصال بالنسور في وقت محدد.

❁❁❁

كان موقع حراسة المعسكر إلى جوار المقبرة من أسفل، ولا يرى جنوده من بداخل المعسكر فقد كانت البوابة تأخذ زاوية صعبة بعض الشيء، نتيجة عدم استقامة الموقع.

استقر في موقع التأمين من أعلى المقبرة كل من فواز وحسون وسوسن. وقد وفرت سلمى من موقع قريب كل احتياجاتهم، أما بقية الفريق فكانوا موزعين في الأسفل حسب الخطة، وأضافوا إليهم خمسة متطوعين من موقع قريب. وفي اللحظة المناسبة بدأ طارق وصلاح وعامر الهجوم، وكانت خطتهم تعتمد على السرعة وحسن التصرف.

ربض على بوابة المعسكر ستة صهاينة لحراسته يستعدون لأي اعتداء، ولكن ما حدث لهم كان مفاجأة، فقد ارتدى طارق وصلاح وعامر ملابس الجيش الصهيوني التي استولوا عليها من قتلى المقبرة، وتقدموا ناحية المعسكر، وحينما اقتربوا من بوابته أخرجوا مسدساتهم كاتمة الصوت، وأطلقوا بسرعة على الستة أفراد في مواضع قتل، وأسرعوا إلى داخل المعسكر وصلاح الدين يصيح بعبرية سليمة "العرب يهاجمون المعسكر"، وبالطبع اندفع معظم جنود العدو في اتجاه البوابة، في حين أكمل طارق وصلاح وعامر عدوهما في خط مستقيم عكس البوابة إلى الداخل.

أسرع كل من حسون وسوسن بإطلاق الرصاص والقنابل اليدوية في اتجاه الجنود الذين توجهوا إلى البوابة فأصابا معظمهم. وكان طارق وصلاح الدين

قد وصلا إلى حاجز فولازي واحتموا خلفه، ثم بدءا في إطلاق النار على الجنود بكثافة. وفي الوقت نفسه كان فواز يصوب ببندقية قنص على جنود الحراسة بالقرب من المنزل، فأصاب اثنين بسرعة، في حين كان عامر قد وصل إليهم وألقى بقنبلة يدوية فأرداهم جميعا، قبل أن يصيب برج الهوائي بقذيفة من بندقيته.

تم توزيع الخمسة رجال الذين تم إضافتهم في الخطة الجديدة على خمسة مواقع، يمكنهم منها إحداث إصابات عديدة في جنود المعسكر بعد قتل حراس سطح مبنى الإدارة. في نفس الوقت كانت سلمى ومعها إلياس في الطريق إلى الحافلة الخلفية، وسيطرا عليها بعد قتل ثلاثة جنود وأسر الرابع. أما الحافلة الأخرى فقد أطلقت سوسن عليها قذيفة متفجرة من بندقيتها أصابتها دون إحداث ضرر بالمنزل المجاور.

لم يخاطر الجنود الإسرائيليون بتفجير مبنى الإدارة والمنزل، لأنهم كانوا محاصرين بوابل من النيران، ويحاولون الاختباء في أي مكان داخل المعسكر، فلا وسيلة للهروب منه. ولكن لم يكن هذا الاحتمال موثوق فيه، فعمل كل من راشد وعبد الله وحامد بسرعة على تعطيل العبوات الناسفة بعد أن قتلوا جنود الحراسة حول المبنى، وبالطبع ساعدهم الجنود الخمسة الموزعين في أماكن عالية حول المعسكر.

وجد جنود العدو أنهم هالكين لو استمروا في المقاومة، لأنهم تصوروا أنهم يحاربون جيشا كبيرا. فانبطحوا أرضا وألقوا بأسلحتهم مستسلمين، وهنا توقف إطلاق النار من جانب فريق "عملية الحساب"، ووجدوا باب المنزل ينفتح ويخرج منه اثنين من جنود العدو يرفعان أيديهم فوق الرأس

مستسلمين. دخلت سلمى سريعا إلى المنزل في حماية عامر، وأخرجت الأسرى منه في سلام.

وأشار صلاح الدين إلى الجنود الخمسة بإبقاء واحد للحراسة في الأعلى، وإنزال الأربعة إلى المعسكر سريعا للمساعدة في احتجاز جنود العدو. ثم أخذ يبحث عن الرائد طارق، فوجده ملقى إلى جوار حائط فولازي، وكان ينزف من قدمه، بعد أن أصابته طلقات العدو إصابة بالغة، وقد نظر إلى صلاح الدين بإعجاب، قائلا:

- كانت خطة رائعة يا صديقي، ولا حاجة لدينا في طلب مساندة النسور، فقد انتهى كل شيء. ولكن أسرع بتجهيز مجموعة على وجه السرعة للتعامل مع نوبة الحراسة الجديدة التي ستصل إلى المقبرة والمعسكر في أي لحظة.

- سأنفذ كل أوامرك، ولكن الآن يجب ان تهدأ، لأنك فقدت كمية كبيرة من دماءك، وذلك خطر عليك.

- لا يهم.. هل حررت الأسرى ؟ هل هناك مصابين منهم ؟

- اطمئن يا بطلنا، لقد قامت سلمى بذلك، ولا توجد أية إصابات بينهم.

أسرعت سلمى إلى صلاح وهي تبكي.. وتخبره أن عبد الله وراشد استشهدا أثناء إبطال مفعول المتفجرات، وأن إلياس أصيب إصابة خفيفة، ويجب إبلاغ النقطة الطبية سريعا.

كانت الساعة السادسة صباحا حينما جمع الجنود أسرى العـــدو في مقـــبرة الساهرة، وعينوا حراسة عليهم. وبعد أن اطمئن صلاح الدين على المصـــابين جمع فريقه لوضع خطة القضاء على المعسكر الآخر وتحرير الأسرى منه، فقـــد قرر ألا ينتظر أوامر القيادة التي لا يستطيعون الاتصال بها.

- أحتاج إلى أكثر من خمسين رجلا للقيام بالعملية التالية.

- أنا وعامر سنذهب لتوفير الرجال، وسنقوم بذلك بسرعة فرجال العـــرب منتشرون في القدس، وكلهم مسلحون.

- لا يا سلمى. ابقي أنتِ وعامر هنا لنخطط للعملية سويا، وليذهب صـــالح وفواز لجمعهم.

- كما تريد. ما هي خطتك ؟

- لقد رأينا أنهم يعتمدون على الخداع أكثر مـــن التحصـــين، فلجـــأوا إلى خداعنا بمكان مزيف للأسرى، وتكثيف العبوات الناسفة في المكـــان بمـــا يهدد حياتهم مثلنا. ولكننا والحمد لله استطعنا أن نكشف الخدعة وننتصر عليهم.

- ولكنك تعلم أن الموقع التالي في منطقة سكنية، والأماكن المحيطة به أضيق كثيرا. وأفادنا طارق أنهم يحتجزون الأسرى في مدرسة حصنوها جيدا.

- مهما كانت قوة حصنهم يا سلمى فسوف نخدعهم لتنجح خطتنا. اسمعوني جيدا.

يتجمع الفريق حول صلاح الدين، ينصتون له وهو يشرح لهم خطة الهجـــوم على المركز التالي لجنود أعداء الأقصى، وهو يستطرد:

- حينما سندخل من باب الساهرة سنتجه يسارا نحو حارة بـــاب حطـــة. الجنود يتحصنون بمدرسة البنات القديمة، المكان هناك ضيق جدا، ومـــن الصعب اقتحامه، وسكانه لا يزالون في أماكنهم لم يبرحوها منـــذ بـــدء العمليات الحربية، و...

وقبل أن يكمل شرح خطته، قاطعه صوت سوسن التي أخذت تصيح عليه من بعيد:

- جهاز الراديو يعمل الآن. لقد استطعنا الاتصال بالقيادة، وهم ينتظرونك.

يترك صلاح الدين فريقه، ويعدو في اتجاه سوسن وهو متلهف لإخبار القيـــادة بما حدث، وإطلاعهم على خطته. وتترك سلمى الفريـــق لتتـــابع الموقـــف في المعسكر وتتأكد من خطة تأمينه، وكان يبدو عليها القلق، فالوضـــع أصـــبح مرتبكا على الرغم من انتصاراتهم المتتالية..

في صباح القدس الجميل، ومن إحدى شرفات المدينة العتيقة، كانت ســـلمى تردد أغنية فيروز بصوت منخفض: (الطفل في المغارة وأمـــه مـــريم وجهـــان يبكيان.. يبكيان لأجل من تشردوا.. لأجل أطفال بلا منازل...) وقد شـــرد ذهنها بعيدا، وسألت نفسها هل يمكن أن يمتد بها الأجل لتجد فلسطين دولـــة حرة. ولم لا ؟ فالجيوش العربية تنهال على المعسكرية الصهيونية قصفا كل يوم في كل مكان بأرض فلسطين، وتحقق انتصارات لم يسبق لها مثيل، والعمليـــات التي يقوم بها المجاهدين في الداخل تحقق انتصارات عظيمة، يزداد معها الأمـــل كل يوم في تحقيق حلم إعلان دولة فلسطين الحرة..

تخزن سلمى كثيرا حينما تراجع ذاكرتها مشاهد ما فعله الصهاينة عندما بدأت الحرب، بإطلاقهم الصواريخ بعشوائية ويأس في اتجاه المدن العربية على الأبرياء، حتى استشهد أكثر من مليوني عربي.

- فيما أنتِ شاردة يا سلمى..

- تذكرت ما فعله الصهاينة بعد بدء العمليات يا فواز.

- كانت ردة فعل متوقعة منهم، وبالرغم من وحشيتها، ولكنها ساهمت كثيرا في إنجاح الحرب، بعد أن أصابت صواريخهم بعض قواعد الغرب في العراق وسوريا والخليج العربي ودمرتها، وتسببت في مقتل الآلاف من الجنود الأجانب، وكذلك تدمير بعض أحياء الأجانب وسفاراتهم في بعض الدول العربية.

- ولكن يا فواز مقابل آلاف الأجانب، استشهد مليوني عربي.

- نعم.. ولكن لولا ما حدث لكانت الحرب ضدنا الآن عالمية.

- ولكن البوارج الأجنبية عند مدخل البحر المتوسط، وفي جنوب البحر الأحمر، ومستعدة للتدخل.

- لن تستطيع محاربة كل الدول العربية، وهي في تلك الحالة من التأهب الكامل. وتواجدها على حد قولهم بسبب حماية رعاياهم، والتدخل لإنقاذهم إذا لزم الأمر. ولم يصدر منهم أي تصرف عكس ذلك

- معك حق. وها نحن نحقق كل يوم انتصارا جديدا.

- لقد تأخر صلاح الدين.

- نعم. تأخر كثيرا، ونحن هنا في موقعنا ننتظر بدء تنفيذ الخطة التي وضعناها على أحر من الجمر.

- اتنتظرين بدء المهمة أم رؤية صلاح الدين ؟

احمر وجه سلمى خجلا وابتسمت، وضحك فواز، وانتظـــرا في صـــمت، لا يقطع السكون سوى صياح البائع أسفل المنزل الذي يقفان خلـــف إحـــدى شرفاته العلوية.

- البرااااااااازق النااااااااااعمين – فرح لولاااااد.

يستمعان لهذا البائع ويضحكان، فلا زالت القدس على حالها رغـــم المعـــارك وصوت الرصاص.

(١٢)

القـــدس لنـــا

يقولون أن عبقرية بني البشر تمتـــاز بخصـــائص تؤهلها للزعامة، فإذا كانت العبقرية قد اتجهت للزعامة في وطنها برزت قدرتها العقلية الفياضة، ولفتت الشعوب بأحاسيسها واتجاهاتها ومواهبها التي تستوعب الحياة بكل ما تضطرم بـــه مـــن حب وكره وعطف وذكاء وإيجابيـــات تكـــاد تكون خارقة. إن إخلاص الزعيم العبقري لكل المعاني الإنسانية العليا، يفرض على ذاته الالتزام بما يرفع شأن أهله وعشيرته ووطنه. فهل تحتاج تلك الأرض العطرة، التي بدأت تتنسم حريتها إلى زعيم عبقري يأخـــذ بيـــدها ويقـــدم لهـــا الخـــلاص.

من منزل يواجه أحد زوايا سور مدرسة البنات القديمة، وبينما كانت ســـلمى تطل من إحدى شرفاته العلوية، فإذا بها تنتبه وتصيح على فوز، الذي أســـرع إليها، فأشارت إلى الطريق من الشرفة، فتركها ليسرع إلى خارج المنزل.

كان المشهد في الخارج ملفتا للنظر، مجموعة من الجنود الصـــهاينة يحيطـــون برهائن في ملابس مدنية، وكانوا يعدون بأقصى ســـرعة في اتجـــاه المدرســـة،

ويطلقون النار خلفهم، ويصيحون بالعبرية بصوت عالي "أنهم خلفنا، إنهم خلفنا، افتحوا البوابات".

حينما خرج فواز من المنزل، توجه إلى منزل مجاور، وقبل أن يختفي بداخله أعطى إشارة للأهالي بالابتعاد، فركض منهم من ركض، واستل بعضهم سلاحا كان يخفيه، واتخذ موقعا دفاعيا. وبعد أن كان الجو صاخبا بدأت لحظات الصمت، لا يكسرها سوى صيحات جنود الصهاينة الراكضين.

حملت سلمى بندقية قناصة متطورة كانت تستند إلى الجدار بجوارها، ونظرت إليها في إعجاب وأعطتها قبلة، قبل أن تثبتها جيدا على حافة إحدى شرفات المنزل المقابل للمدرسة وأطلقت النار. كانت طلقات فردية سريعة أصابت بها الجنود فوق المدرسة.

لم تكن سلمى وحدها من يطلق النار، فقد أطلق فواز بوابل من نيران كثيفة بسلاحه الآلي الثقيل، وركز طلقاته على أقرب نقطة حراسة من منزل سلمى لتغطيتها. كذلك فعل إلياس الذي أصر على المشاركة على الرغم من إصابته، وكان معه عشرين مقاتل ظهروا فجأة من شرفات وأسطح المنازل المحيطة بالمدرسة، وكانوا يتبادلون إطلاق النار بكل عنف وتحدي.

أسرع قائد الجنود الصهاينة إلى بوابة المدرسة، ووجه كلامه إلى حراسها بكلمات عبرية متقطعة خائفة، وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه من كثرة الركض وينحني وهو يستند إلى ركبته محتميا ببابها الفولازي.

- إن القوات العربية قادمة نحونا. لقد دمروا معسكرنا في موقف الحافلات عن آخره، وحرروا بعض الرهائن، لكننا استطعنا الهرب، واحتمينا بهؤلاء المدنيين أثناء هروبنا والمجيء إليكم. يبدو أنهم بدأوا الهجوم على

معسكركم أيضا لتحرير الرهائن، يجب أن تبلغ القيادة حـــالا (ويصـــيح بصوت مرتفع وغاضب) يجب أن تبلغهم فورا.

لم يستطيع جنود الحراسة الرد عليه، فقد كانوا يحاولون الاختبـــاء وتحصـــين أنفسهم، إن نيران العرب تستهدفهم من كل اتجاه، فأشار أحد الحراس إليهم بالدخول سريعا، ولآخر باستعمال قاذف القنابل نحو المنازل التي تأتيهم منـــها الطلقات. ويعدو الجنود وفي صحبتهم الرهائن إلى مبنى المدرسة. منخفضـــي الرؤوس من تلك النيران الكثيفة حولهم، يحتمون بالعوازل الإسمنتية المنتشـــرة فى ساحة المدرسة، بتغطية نيرانية كثيفة من زملائهم، فقـــد حصـــن جنـــود المعسكر أنفسهم، وتبادلوا إطلاق النار مـــع المقـــاتلين العـــرب المتحصـــنين بالشرفات وأسطح المنازل المحيطة.

- افتح الباب سريعا يجب أن ندخل بهؤلاء الرهائن ونضمهم مع الآخـــرين، وسوف نخرج لنلقن هؤلاء العرب درسا لن ينسوه اليوم أبدا.

يسرع حرس مبنى المدرسة بالسماح لهم بالمرور، وهم يحاولون حماية أنفســـهم وتحصين أماكنهم. وحينما أغلق الجنود باب مبنى المدرسة خلفهم، كان المشهد مريعا في الداخل. مئات المدنيين تكتظ بهم الصالة الرئيسية للمبنى في حراســـة بعض الجنود، وكان هناك عشرات الجرحى المهملـــين، وتأوهـــات، وبكـــاء الأطفال وصرخاتهم.

أخذ كل جندي اثنين من الأسرى الجدد ليلقيه في اتجاه، وبعـــد أن طرحـــوا رهائنهم أرضا أخرج كل منهم سلاحه بسرعة، وصاحوا بالعبرية "فلنلقنـــهم درسا قاسيا"، وبدأوا في إطلاق النار.

كان الموقف خارج مبنى المدرسة صعبا للغاية، فهناك أكثر من مائتي جندي، وكانوا أكثر تنظيما من معسكر موقف الحافلات، فعمل مقاتلي العرب على إرباك الجنود بإطلاق النار في كل الاتجاهات، وتجنبوا إطلاق النار على المبنى لحماية الرهائن، حتى أنهم تجنبوا إصابة أي من الرهائن الجدد، واستخدموا المئات من الذخيرة الخارقة للدروع، وقاذفات القنابل، وعلى العكس من توقعاتهم كان رد الصهاينة عنيفا، بعد أن تحصنوا بدروع صعبة سميكة يصعب التعامل معها بالذخيرة الخارقة.

وأصبح أمل المقاتلين ضعيفا في أن يكتب لهم العيش للمشاركة في معركة أخرى ضدهم، إلا أن اليأس تبدد سريعا، حينما لاح الأمل في الأفق، فقد ظهرت مروحية تحمل العلم العراقي، وبدأت في مناورة النيران اليهودية التي باتت تستهدفها، حتى تمكنت من إطلاق قذائفها نحو المعسكر لتحقق فيه الكثير من الخسائر، وأصبح على الجنود العرب القضاء على ما يتبقى من الجنود في الأماكن المصابة بنيرانها.

سعد المقاتلون كثيرا حينما ظهرت مروحيات أخرى تقاتل معهم، حتى رفع بعض جنود العدو أيديهم مستسلمين، فأعطى فواز أمره بإيقاف إطلاق النار، واقتحم المقاتلون المعسكر ليستكملوا سيطرتهم عليه، وهبطت المروحية في ساحته.

أسرع بعض المقاتلين إلى باب مبنى المدرسة لتحرير الرهائن، وحينما وصلوا إليه، فتح الباب وخرج بعض الرهائن في صحبة بعض جنود الأعداء، وأشار قائدهم بإشارة ترحيب إلى فواز، الذي قال له:

- خطة رائعة يا صلاح الدين. كدنا أن نفقدك يا رجل.

- شكرا لك يا صديقي، لا تقل ذلك فلولا توفيق الله، وشجاعتك أنت وسلمى والرجال لما نجحت الخطة (ينظر حوله كأنه يبحث عن شيء ويسأل فواز): أين سلمى ؟

- ها هي هناك تساعد في تضميد جراح بعض الجنود الأسرى.

- الحمد لله أنكم بخير، كان آدائكم رائعا حينما حققتم التغطية لنا ونحن ندخل إلى المبني، فإرباككم لهم بتلك الطريقة التي فعلتموها، جعل الجنود لا يهتمون بالتحقق من شخصيتنا. الحمد لله.

- لقد نجحنا بخطتك أنت أيها القائد الهمام (ينظر إلى صلاح الدين بمودة وهو يربت على كتفيه قائلاً) والآن سننقل الجرحى بالمروحيات لأقرب نقطة طبية، واسترح أنت، فأنا أعرف أن مهمتك في الداخل مع الرهائن كانت صعبة.

❁❁❁

شرد ذهن صلاح الدين وعاد بذاكرته ساعة إلى الخلف، حينما استطاع جند الاستطلاع الذين أرسلهم لمراقبة المعسكر تحديد عدد الجنود داخل المبنى وفوقه. وعلم أنهم ثلاثة مجموعات حراسة مكونة من رباعيات في داخل المبنى ومجموعتين فوق المبنى، وهم الذين تولت أمرهم سلمى في بدء الاقتحام. وبناء على نتائج الاستطلاع قسم صلاح الدين فريقه داخل المبنى بما يلاءم الأمر، مستعيناً بالله وثقته في أصدقاءه.

وبعد أن وصل إلى بوابة المدرسة بصحبة بعض الجنود العرب في أزياء مدنية، وقد أخفوا أسلحتهم بمهارة تحت ملابسهم، حاول أن يستغل رعب الحرس وجهادهم الدفاع عن أنفسهم، فانحنى بجسمه وهو يلهث ويحاول الاحتماء

ببوابة المدرسة، وكان يتحدث العبرية بشكل متقطع لكي لا يلتفت أحد إلى حقيقته. وبعد أن استطاع الدخول إلى مبنى المدرسة مع جنده المتنكرين، وزعهم على مسافات بطريقة درامية أمام جنود حراسة المبنى من الداخل. فقد ألقى حامد وعامر أرضا بطريقة عنيفة، وهما يصيحان ويسبان فيهم بصوت عالي، وكذا فعل الآخرون مع أسراهم، وكل واحد منهم ألقى بأسراه قرب مجموعة من جنود الحراسة، ثم أمسكوا بأسلحتهم وأعدوها للقتال. وظن جنود الصهاينة في الداخل أنهم يجهزون أسلحتهم للخروج والمشاركة في القتال بالخارج، ولكن المفاجأة كانت أصعب، حينما بدأ زملائهم هم ورهائنهم في إطلاق النار عليهم بسرعة، بمسدسات كاتمة للصوت بمهارة..

ولم يتسن لجنود الحراسة في الداخل فرصة للرد، فكان صلاح الدين ورفاقه أسرع منهم، وساعدت المفاجأة وخوف الجنود مما يحدث بالخارج على تحقيق الهدف. ومع بداية أول طلقة من طلقات نيران صلاح الدين ورفاقه كانوا قتلى، وكان حرصهم ألا يصاب أي أسير بأذى.

أمر صلاح الدين زملائه بتجميع الرهائن في أماكن آمنة داخل المبنى ليتجنبوا إطلاق النيران الكثيف في الخارج، بعد أن نسق ضربة جوية مع قائد المروحية العراقية عن طريق اللاسلكي.

أفاق صلاح الدين على صوت سلمى.

- أحسنت أيها الزعيم.

- شكرا يا رفيقتي الحسناء (ثم أردف قائلا وهو يشير بسلاحه إلى المقاتلين العرب) هؤلاء الرجال هم أبطال تلك الملحمة، ولولاهم لما نجحت خطتنا. كنت أتمنى أن يكون طارق معنا الآن ليشاهد ما فعلتموه.

ردت عليه سلمى، وهي تختال دلالاً أمامه، قائلة:

- أنا متأكدة أنه سيثني على عبقريتك في القيادة يا رفيقي العزيز.

نظر صلاح الدين حوله يتأمل أهل القدس الذين كانوا يحتفلون بانتصارهم. النساء تزغرد، والرجال يهللون الله أكبر والكنائس القريبة تدق الأجراس. لقد كانت معركة فاصلة، ونجاحها بهذا الشكل يعني أن القدس العتيقة أصبحت خالية من الصهاينة لأول مرة منذ عشرات السنين.

أمسك صلاح الدين يد سلمى وصعد بها إلى سطح مبنى المدرسة، ولحق بهما إلياس وفواز وانضما إليهما، ووقفوا جميعا على حافة المبنى، ونظروا إلى الجموع الغفيرة في الأسفل. إن المشهد أسفلهم يثير كافة المشاعر البشرية. ذهب إلياس ورفع علم فلسطين على عامود قريب منهم، ثم أمسك الأربعة بأيدي بعضهم البعض ورفعوها إلى أعلى وصاحوا بأعلى صوتهم الله أكبر، الله أكبر. وامتزجت تكبيراتهم بهدير المروحيات التي تحوم حولهم، وأصوات مؤذني المساجد وأجراس الكنائس، وكأن الشيوخ المؤذنين يتغنون بأحلى كلماتهم والقساوسة يلحنون تلك الكلمات بأحلى ألحانهم.

(١٣)

جبل المكبر

في صباح أحد أيام العام الخامس عشر للهجرة، وكانت السماء تمطر مطرا خفيفا وهي ملبدة بغيوم ثقيلة تنبئ عن قرب سقوط أمطار ثقيلة، ينطلق أحد الفرسان بجواده في شوارع القدس المبللة، وهو يصيح في الجميع أن أفسحوا الطريق، حتى وصل إلى إحدى كنائس المدينة القديمة، ليقفز من على صهوته ويسرع إلى داخلها، وما أن رآه أحد قساوستها حتى أسرع إليه لاستقباله وتهدئته، فأخبره الفارس أنه يريد مقابلة كبير القساوسة في أمر عاجل.

بعد قليل جاء كبيرهم يسأله:

- هل عاد جميع الفرسان يا بني ؟

- نعم أيها البطريرك سيفرونيوس، وقوات المسلمين تزداد كل ساعة. إن قوات المسلمين تحيط بالقدس من كل جانب.

- وما حجم قواتهم هناك ؟!

- عظيمة يا سيدي. فالقوات الرابضة أمام أسوار المدينة ويقودها خالد بن الوليد ليست وحدها، فهناك قوات يزيد بن أبي سفيان التي تصل إلى خمسة آلاف مقاتل، وعلمت أن شرحبيل بن حسنة يقود خمسة آلاف أخرى خلفهم، وسيصل أبا عبيدة بن الجراح بمدد آخر ليقود كل تلك القوات.

يتركه البطريرك وهو شارد الذهن، ويذهب إلى المذبح، ليقف أمـــام تمثـــال يسوع بعض الوقت، قبل أن يلتفت إلى الحاضرين قائلا:

- لقد قررت أن أسلم المدينة إلى المسلمين..

تزداد الهمسات المعترضة في أرجاء الكنيسة، وكلها تشير إلى أنه يجب الصمود أكثر. إلا أن البطريرك يستطرد:

- يا إخواني.. الناس جياع والحصار شديد (ثم يرتفع صوته منفعلا) لـــيس معنا من السلاح والفرسان ما نستطيع به مواجهتهم، إن لي رأي أرجو أن ينال رضاكم.

يتحرك أحد الفرسان نحو البطريرك ويقول له:

- سننفذ ما تأمر به أيها البطريرك سيفرونيوس، فإن رأيك بالتأكيد فيه مـــن الحكمة ما سيصب في مصلحة المسيحية والمدينة وسكانها.

- بوركت يا بني، وأنا لن أرضى أبدا بالذل لكم، أعدكم جميعا بذلك.

❁❁❁

كان المشهد خارج أسوار القدس رهيباً، فقوات المسلمين في كـــل مكـــان، عددهم كبير وعتادهم كثير. يطلب أحد الفرسان المسيحيين من الجنود المثول بين يدي قائد المسلمين منفردا، فيأذن له بالدخول بعد أن ينصرف كل مـــن بالخيمة إلا أبا عبيدة بن الجراح.

- سيدي القائد، أبلغكم تحية البطريرك المعظم رئيس الأساقفة سيفرونيوس.

- وعليه وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، هات ما عندك أيها الفارس.

- سيدي البطريرك يوافق على تسليم المدينة إليكم.

- حسنٌ فعل، وسأذهب إليه لأتسلم مفاتيح المدينة بنفسي وأشكره.

وحينما ذهب أبا عبيدة إلى البطريرك أبى الأخير أن يسلمه مفاتيح المدينة، وقال له: معذرة، فقد قرأنا في كتبنا أوصافا لمن يتسلم مفاتيح المدينة، وربي إني لا أرى تلك الأوصاف في أي أحد من قادة جيوشكم.

وما أن سمع أبا عبيدة ذلك حتى امتطي جواده وانطلق تجاه باب القدس خارجا منها. وحينما وصل إلى خيمته طلب كل معاونيه ليستشيرهم في الأمر. فقرروا أن يأخذ أبا عبيدة وفدا من أهل القدس، ويذهب به إلى أمير المؤمنين ليتباحثوا في الأمر قبل اتخاذ أي تدابير حربية.

وبالفعل ذهب الوفد إلى "عمر بن الخطاب"، الذي ما أن رآه أفراده حتى تعجبوا من بساطة عيشه وحسن خلقه، فقد وجدوه نائما بظل شجرة في الصحراء، وحينما قابلوه أبلغوه عن رغبتهم في أن يذهب معهم لتسلم المدينة من البطريرك الذي لا يرى في القادة العربمن يستحق أن يتسلم مفاتيح القدس، فوافق أمير المؤمنين على تلبية طلبهم، وذهب دون تردد بعد أن استخلف "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه ليتولى أمر المسلمين في غيابه.

كان "عمر" يصطحب خادمه في رحلته إلى القدس، ومعهما ناقة واحدة، كانت الرحلة شاقة تبادل فيها الخليفة وخادمه ركوبها حتى وصلا إلى مشارف القدس، حيث صعد سيفرونيوس والقساوسة ومعهم بعض قادة الجيش الإسلامي على أسوار القدس يترقبون وصول أمير المؤمنين من ناحية جبل المكبر، ونظروا إلى الرجلين القادمين من بعيد، فتعجب البطريرك لذلك، فلا توجد مواكب أو قوات عسكرية تحرسه.. وسأل سيفرونيوس:

- أيهما عمر ؟!

فرد عليه أحد قادة الجيش الإسلامي الذي كان يرافق البطريرك قائلا:

- إن أمير المؤمنين هو الذي يمسك بزمام الناقة، ويخوض في الماء والوحل وردائه يمتلئ بالرقع.

- ومن الذي يمتطي الناقة هذا ؟!

- إنه خادم أمير المؤمنين.

ينظر البطريرك إليه بذهول، ويتبادل مع القساوسة النظرات ثم يردف قائلاً: والله إن ذلك مذكور في سفر نبي الله زكريا (ابتهجي يا ابنه صهيون. اهتفي يا بنت أورشليم. هو ذا ملكك يأتي إليك. إنه عادل ومنصور ووديع. راكب على حمار وعلى جحش ابن آتان. واقطع المركبة من إفرايم والفرس من أورشليم. وتقطع قوس الحرب. ويتكلم بالسلام للأمم. وسلطانه من البحر إلى البحر. ومن النهر إلى أقاصي الأرض).

وعندما وصل "عمر" إلى القدس وتسلم مفاتيحها، أمن أهلها عن أنفسهم ومالهم، وخرَّ ساجدا لله، ثم قضى ليلته يبكي، وما جفت دموعه، ولما سألوه عن السبب قال: أبكي لأنني أخشى أن تُفتح عليكم الدنيا، فينكر بعضكم بعضاً، وعندها فقط سينكركم أهل السماء. وهكذا، كانت العهدة العمرية، والفتح الأول للقدس، واليوم العظيم لكل المسلمين والمسيحيين، الذين استطاعوا بعد ذلك الحج إلى القدس بحرية بعد أن كان قياصرة الرومان يسيطرون عليها، ويذل فيها المسيحي الشرقي كالمسلمين.

* * *

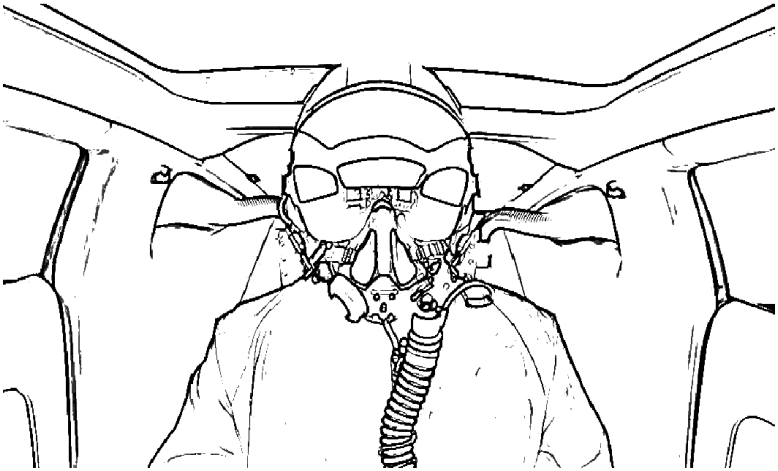

في أحد المطارات السورية، كان الجو صحوا، الشمس مشـــرقة ولا توجـــد غيوم. استعدت خمس مقاتلات حربية للإقلاع، وبعد إشارة المرشد الأرضـــي بدأت الواحدة تلو الأخرى في التحليق. عمل أحد الطيارين على الاطمئنـــان إلى مستوى أداء طائرته بعد إقلاعها، وهو يرتفع بطائرته إلى مســـتوى أعلـــى عند نقاط حددت له مسبقا. وبصورة روتينية فتح جهاز تعريـــف الاتصـــال، وأرسل منه إشارة ليزرية إلى طائرات زملاءه، الذين ردوا عليه بنفس الطريقة، فاطمئن إلى أنه لا يوجد متسلل بينهم، وأن جميعهم يعرفون الشفرة الســـرية للاتصال.

- من نسر واحد (أكرر) من نسر واحد إلى النسور.

يرد النسور الأربعة على قائدهم مؤكدين سلامة أجهزة طائراتهم.

- من نسر واحد إلى نسر أربعة، اتجه شرقا وارتفع عن السرب قليلا.

- من نسر أربعة إلى نسر واحد، علم وينفذ.

- من نسر واحد إلى نسر اثنين، اتجه غربا وارتفع عن السرب قليلا.

- من نسر اثنين إلى نسر واحد، علم وينفذ.

- من نسر واحد إلى نسر ثلاثة ونسر خمسة طائراتكم على نفس المستوى معي، سأتقدم للأمام قليلا وابقوا على سرعتكم كما هي.

وهكذا، رد النسور واحدا تلو الآخر، علم وينفذ. وحينما تأكد القائد من سلامة السرب، وأنهم يحلقون على تشكيل آمن أخذ يتأمل الأرض أسفله، تلك الطبيعة الخلابة التي جعلته يتمنى انتهاء القتال ليأخذ أطفاله إلى إحدى ضياع وطنه لبنان في نزهة. يتمتع بمناظرها التي تخلب الألباب، وينسى ضجيج المعارك ومناظر القتلى والجرحى وفقدانه لأفضل الأصدقاء، فالحرب هزيمة وإن انتصرت فيها.

يقترب النسور من منطقة جبلية. يفتح نسر واحد جهاز الاتصال ويردد:

- نحن أمام منطقة جبلية. ارتفاع إلى (ض٧) تحسبا لأي هجوم أرضي.

يسمعهم القائد في مذياع الطائرة يرددون واحدا تلو الآخر: علم وينفذ. ثم عمل نسر واحد إلى إرسال إشارات بالأشعة الليزرية نحو الجبل أسفله لكشف أي معدات حربية مخفية. كذلك قام بتشغيل أجهزة تحليل المعلومات التي يمكنه من خلالها تجنب أي متاعب يمكنها أن تعترض طريق سربه.

- من نسر واحد، قارنوا الإحداثيات مع مكان النسور فوق الأرض.

نفذوا الأمر واسترخى الجميع في مقاعدهم، معتمدين على الطيار الآلي في قيادة الطائرات إلى وجهتها. ونظر نسر واحد إلى إحدى الطائرات مبتسما،

وفتح قناة اتصال خاصة حتى لا يستمع إليه بقية النسور، وتبدلت نبرة صوته القيادية الجادة إلى نبرة فيها اشتياق وحنين، قائلا:

- من نسر واحد إلى صديقي الغالي "حسام".

كان النقيب المصري "حسام" يتأمل الأرض أسفل طائرته، حينما سمع نسر واحد، ومن صوته علم أن الحديث سيأخذ شكلاً ودياً، فضحك قائلاً:

- لم أصدق نفسي يا "ريمون" حينما رأيتك في القاعدة الجوية صباح اليوم.
- تعلم يا صديقي أنه من الصعب وضع البيض كله في سلة واحدة، وقد فرقونا لأمان المهام، فلا نتجمع للقيام بعملية إلا بنظام سري ومحدد.
- أعلم ذلك، ولكن ما رأيك الآن، هل نحن في حلم كما كنت تعتقد؟
- نعم.. وأتمنى ألا أصحو منه أبداً، وكل المقاتلين في "قلب الصقر" يظنون حتى الآن أنهم يشتركون في حلم واحد. أنت تعلم يا حسام أننا منذ كنا نتدرب سويا في مصر، ونحن على قناعة تامة بأننا سنتتره بالطائرات ونقوم بمناورات ومشاريع حربية ودية طوال حياتنا العسكرية، ولن نفعلها يوما ونشترك في قتال حقيقي مع هؤلاء، وربما نقاتل بعضنا ولا نقاتلهم.
- أتذكر ذلك، ولكنك الآن قائدنا في مهمة حقيقية ضد الصهاينة.
- نعم يا صديقي، لقد كان قرارا جريئاً، تأخر كثيراً ولكنه اتخذ في النهاية.
- أنظر إلى الأسفل، كم هي أرضنا العربية جميلة. أقسم لك يا حسام بأنني لن أترك هذه الأرض إلا وهي حرة، كيف نترك كل هذا الجمال لهم.
- بقيت دقائق ونصل إلى هدفنا، واسمح لي أن أودعك كصديق، فأنت منذ هذه اللحظة قائدي.

تعطي طائرة قائد السرب إنذارا صوتيا باقتراب الهدف، حسب الإحداثيات التي تم تغذية الطائرة بها، والتي يتم تحديثها بشكل آلي عن طريق الأقمار الصناعية العربية. فينظر نسر واحد أمامه ليرى في الأفق جبل المكبر، ذلك الجبل الذي يتميز بشهرته التاريخية، فقد شهد أول تكبيرة دوت في بقاع القدس، حينما وصلت قوات المسلمين بقيادة "أبي عبيدة بن الجراح" لطرد الرومان من الأرض المقدسة.

- أتعلمون أيها النسور أن أهالي القدس طلبوا أن تسلم مدينتهم إلى خليفة المسلمين "عمر بن الخطاب" شخصياً.

- (يرد حسام) نعم نعلم تلك القصة، إن هذا الجبل شاهد على أحداث عظيمة، كانت صدمة العرب كبيرة بعد أن اعتدى الصهاينة عليه في عام ١٩٥٧، وسيطروا على الطرق المؤدية إلى عمان. قال لي أبي أنه حزن حزنا عظيما وقتها، وشعر بأن القدس ضاعت وعظمت جراحها، ...

قاطعه "ريمون" حينما لاح في الأفق هدفهم المنشود، وأسرع يخاطب بقية النسور.

- من نسر واحد إلى النسور، سنهاجم بتشكيلنا الذي تدربنا عليه، سنرتفع الآن إلى أقصى ارتفاع يمكن للطائرة ارتفاعه، بحيث لا يمكن رؤيتها من الأرض وسنُسقط وابل نيراننا على الموقع بشكل شبه عمودي، وبذلك سنتجنب أي ردود سريعة من الأعداء. على بركة الله.

- (يجيب كل منهم منفردا) علم وينفذ.

يرتفع النسور بزاوية شبه عمودية إلى أعلى، وحينما وصلوا إلى الارتفاع المقصود تفرقوا بتشكيل يشبه زهرة اللوتس وهي تتفتح، وعكسوا اتجاههم

وانقضوا على موقع العدو. لقد كانوا كالأفعى التي تنقض علـــى فريســـتها. وقبل أن ينقض نسر واحد على إحدى النقاط الدفاعية للهدف، اطمئن إلى أن الرهائن المدنيين تم تحريرهم في عملية أرضية ناجحة كانت تدور وهم في الجو أثناء توجههم للموقع. فقد كان هجومهم كمرحلة ثانية بعد مهمـــة تحريـــر الرهائن، الذين كان يقودهم أحد المقاتلين، ويتوجه بهم إلى مروحيـــة قريبـــة تستعد للإقلاع.

- من نسر واحد إلى نسر خمسة، مهمتك تأمين المروحيـــة حـــتى وصـــول الرهائن بسلام إلى القاعدة الجوية.

- علم وينفذ..

- من نسر واحد إلى النسور اثنين وثلاثة وأربعة، انتهت المهمة، أراكـــم في القاعدة.

- علم وينفذ..

❁❁❁

ينظر صلاح الدين إلى الطائرات، وهي تعزف سيمفونية هجوميـــة صـــاخبة، وقد فوجئ بها تهبط بشكل شبه عمودي فوق الموقع، وتطلق النيران لتـــدمره عن آخره، إلا واحدة ظلت تحوم حولهم. فقرر الابتعاد بمسافة كافية ليتجنب أي إصابات صديقة، وقد نجح ورفاقه في تحرير الرهائن من الموقـــع الثالـــث والأخير للصهاينة في جبل المكبر بالقدس. كان الرهـــائن يصـــطفون خلـــف صلاح الدين وفي حراسة كل من سلمى وسوسن وإلياس والعديد من المقاتلين من جنسيات عربية شتى.

- سلمى. إلياس.. لا تتركوا الرهائن إلا في القاعدة الجوية، خذوا كل ما يمكنكم حمله من أدوات للدفاع عنهم في حال اعترضكم الأعداء.

- من الواضح أننا سنكون في حراسة جوية أيضا (مشيرة إلى الطائرة الحربية التي تحوم جيئة وذهابا في الأعلى).

- صحيح يا سلمى، أسرعي بهم لأننا نعرض قائد الطائرة للخطر إذا تأخرنا أكثر من ذلك.

- لا تقلق يا رفيقي.. ها هو إلياس ورفاقه يقومون بعملهم.

- سأبقى هنا لتطهير دروب الجبل مع المقاتلين العرب، يجب أن يكون محيط القدس اليوم خالي تماماً من الأعداء.

- ستفعلونها إن شاء الله، حافظ على نفسك من أجلي يا صلاح الدين. أنت رفيق عمري ولا يمكنني العيش بدونك.

نظر إليها صلاح الدين بنظرة حانية رقيقة، وقد شعر بتلك العاطفة المتأججة في نبرات صوتها.. وأجابها:

- حافظي أنت على نفسك من أجلي، وأعدك بأن يكون محيط القدس عربيا خالصا هذه الليلة، ونحمد الله أن القوات العربية تبلى بلاءً حسنا في كل المدن الفلسطينية، إن فلسطين جميعها ستكون حرة عما قريب.

- الحمد لله.. أستودعك الله يا رفيقي.

تتركه سلمى، وأسرعت بالصعود إلى متن المروحية، التي كانت تستعد للإقلاع، وحينما اقتربت منها توقفت وقاومت تلك الزوبعة التي أحدثتها

المروحية، ومالت برأسها والتفتت لتنظر إلى صلاح الدين الذي كان يلوح لها من بعيد، وتمنت أن تراه مرة أخرى، ثم أسرعت بالصعود إلى المروحية التي ارتفعت في سماء جبل المكبر، وانطلقت في حراستها مع إلياس والطائرة الحربية بقيادة الطيار المصري حسام، الذي كان يحاول المناورة دائما حتى لا تغيب المروحية عن ناظريه، حتى تركهم في القاعدة الجوية القريبة آمنين ليعود بعد ذلك إلى قاعدته الأساسية في دمشق.

(١٤)

الجولان السعيد

في مدينة هامبورج الألمانية، وأمام مبنى البلدية العتيق، كان شاب في الـــثلاثين من عمره أشقر بملامح ألمانية حادة يشاهد الطراز المعماري لمبنى البلدية الذي يعود إلى نهايات القرن التاسع عشر، يظهر من تعبير وجهه أنه معجب بمعماره أيما إعجاب، وبين الحين والآخر ينظر إلى ساعته، ثم ينظر إلى ساعة برج مـــبنى البلدية الدقيقة. وبينما كان منهمكا في جولته، إذ بصوت يأتي من خلفه قائلا:

- لم نلتق منذ زمن يا "يوهن".

يلتفت "يوهن" إلى صاحب الصوت. فيرى شيخ طاعن في السن يرتكز علـــى عصاه، فيتحرك بسرعة ليأخذ بيده، ويذهب به إلى أحد المقاعد البعيدة عـــن الزحام.

- عمي العزيز. ماذا تفعل هنا ؟ كيف حالك ؟

- أحمد الله يا بني، كيف حال أبيك ؟ ألن يأتي لرؤيتي ؟

تتغير لكنة "يوهن" وهو يهمس لعمه:

- سيأتي لو أغراه المقابل أيها العم.

يجيبه العجوز بصوت خفيض:

- وما رأيك في مليوني دولار إذا فعل ما أريده.

- سيفعل بالتأكيد (وعيناه تلمعان بذهول) نعم سوف يفعل.

- إذا فالمطلوب هو (يخفض صوته إلى حد الهمس) كافة المعلومات عن أولاد العم في الجولان السوري، أنواع المعدات، عدد الأفراد، قوات الدفاع الجوي، وغيرها من المعلومات المهمة التي تعرفها.
- ما هي المدة ؟
- بأقصر وقت ممكن (ويبادره بابتسامة عريضة، ويستطرد) فربما تتضاعف المكافاة لو جاءت غدا.

يقوم العم العجوز، يتحرك ببطء إلى خارج ساحة البلدية، ويتجه نحو سيارة تنتظره، يفتح الباب الخلفي ويجلس إلى جوار رجل أسمر اللون، أسرع بسؤال العجوز:

- أتظن أنه يستطيع الحصول على تلك المعلومات في وقت قريب؟ نريد أن نضرب ضربتنا في أقرب فرصة، لأنهم في الفترة القادمة سيركزون كل طاقاتهم حول ما سيسفر عنه المؤتمر الذي ينعقد حاليا من نتائج، وربما يعلن المؤتمرون فيه قيام الجمهورية الفلسطينية الأولى، واسم رئيسها الانتقالي الأول.

يجيبه العجوز وهو يترع حواجبه البيضاء الكثيفة، وشعره الأشيب المستعار، ورقائق المطاط التي منحت لوجهه ورقبته التجاعيد:

- وفي أسرع وقت تتخيله، أنا واثق من ذلك. لا تقلق، فالمال الكثير سيعميه عن إدراك أنه يخون دولته. أنت تعلمهم جيدا يا صديقي، ولقد قمنا بتجربته مرات عديدة وأثبت ولائه بأبخس ثمن، فما بالك بمليوني دولار في مهمة واحدة.

- لولا أن المعلومات لدينا قليلة ولا تكفي لتنفيذ العملية، لما لجأنا إلى أمثاله، ولكن فلنهلك الظالمين بالظالمين، الله معنا. هيا بنا لنبلغ القيادة بالأمر.

وتنطلق السيارة مبتعدة.

۞۞۞

وصل بعض ضباط الجيش إلى بوابة غرفة العمليات في مقر قيادة القوات العربية المشتركة بإحدى القواعد العسكرية بالعاصمة التونسية. وعند دخولهم من باب المبنى، وجدوا ممرا طويلا منحدرا، وفي نهايته مكتب استقبال يقف خلفه ضابط وأربعة جنود. تقدم أحدهم لأخذ هوياتهم العسكرية، ثم رافقهم أحد الضباط إلى المصعد، قبل أن يتسلمهم ضابط آخر هبط بهم عددا من الطوابق، حتى وصلوا إلى قاعة فسيحة تمتلئ بلوحات إليكترونية، يقوم عليها العديد من الجنود والضباط.

تسلمهم الضابط المسئول وتوجه بهم إلى مقاعدهم في مقدمة القاعة. وبعد قليل دخل القائد الأعلى للقوات العربية المشتركة، وبعد أن قدموا له التحية، بدأ يحدثهم وقد استمع الجميع إليه باهتمام كبير.

- أهلا بكم، سنحاول اليوم سويا أن نضع الخطوط العامة للخطوة التالية والأكثر خطورة من العملية (يضيف ضاحكاً) وأنا سعيد جدا لأنني أقف الآن أمام أفضل قادة معركتنا التاريخية (يرفع يده ويشيح بها علامة على الإعجاب الشديد بنجاحهم)..

يرفع أحد الضباط يده يطلب الإذن بالحديث، فيشير إليه القائد أن "تحدث".. يقوم الضابط الذي يحمل علم دولة الكويت على ذراعه، ويلقي التحية العسكرية، ويقول:

- سيدي، لقد حققنا ما لم نتوقعه في المراحل الأولى من العملية، والآن أبطالنا في فلسطين يقومون بواجبهم على أكمل وجه، ولكن (يتوقف الضابط مترددا..).

- ولكن ماذا أيها الضابط، أكمل.

- سيدي، فلنحقق انتصارا ساحقا هذه المرة ينهي العملية برمتها.

- وكيف ذلك ؟!

- يجب علينا أن نهاجم أعدائنا على أكثر من جبهة وفي نفس التوقيت، هناك أكثر من موقع عدائي لا يزال نشطا، وتشكل تلك المواقع خطرا على استمرار نجاحاتنا، خاصة وأن الساسة يطرحون مبادرات يمكنها أن تدمر جهدنا، وتعيدنا إلى نقطة الصفر من جديد في لحظات.

- ولكن من وجهة نظرك لماذا تحديدا الآن ؟!

- سيدي.. إن الدول الكبرى كانت تظن أننا سنتوقف عند حد معين يرضينا، ونتوقف لنتفاوض، لكن العمليات استمرت وحققت نجاحات فاقت تصورهم، وأصبح العالم كله يشعر بالخطر من تفوقنا العسكري. سيدي، أقترح على القيادة أن نقوم بعدة عمليات هجومية تستهدف أكثر من هدف في آن واحد حتى لا نخسر كل شيء فجأة.

- فلتضع تصوراً كاملاً، وسأضع في يديك مفاتيح الاتصال ببقية الأسلحة لتستكمل كل الخطوط العريضة لخطتك (يتوقف للحظات ثم يستكمل حديثه) ثم اعرضها على قائدك في خلال ثلاثة أيام لا أكثر، وإذا لاقت قبول القيادة العليا، سوف ننفذها بالتزامن مع المهمة التي نناقشها اليوم.

- عُلم سيدي (يلقي التحية العسكرية ويجلس).

يشير القائد الأعلى للضباط بالاقتراب منه والإحاطة به.. ويتناول عصاه ليبدأ في الإشارة على مجموعة من الخرائط المجسمة أمامه، وما أن انتهى من شـــرح الموقف وتعريفهم على مسرح الأحداث، حتى أخذوا في طرح الأسئلة عليـــه، لفهم بعض النقاط في خطة (معركة التحرير).

❁❁❁

بعد عدة أيام، وفي نقطة حراسة صهيونية في الجولان المحتل، أخذ أحد الجنود يقرأ في الكتاب المقدس بصوت مسموع (فيرفع راية لأمة بعيدة، ويُصفر لهـــا من أقصى الأرض، فإذا بها مقبلة بسرعة وخفة، وليس فيها منهك ولا عـــاثر، لا تنعس ولا تنام ولا يحل حزام حقويها، لا يفك رباط نعليها، سهامها محدودة وجميع قسيها مشدودة، تحسب حوافر خيلها صواناً ومركباتها إعصاراً... لبؤة تزأر كالأشبال، تزمجر وتمسك الفريسة، تخطفها وليس من ينقذ، زمجرتهـــا في ذلك اليوم كزمجرة البحر، تنظر إلى الأرض فإذا بالظلام والضيق، وقد أظلـــم النور في غمام حالك).

يرمقه أحد الجنود بنظرة كلها تهكم، ويقاطعه قائلاً:

- ما بك يا "أكيفا"، مالك متوتر هكذا، ولم تترك كتابك منذ الصباح؟
- لا شيء.
- لا، قل لي ما بك (يداعب "أكيفا" بيديه) أتحن إلى "إيزابيلا" ؟!
- أحن إليها ؟ إنني أشعر أنني لن أراها مرة أخرى بعد ما تعرضـــنا لـــه في الشهور الماضية. أتظن أن لليهود مستقبل (يردف مـــنفعلاً) أتظـــن أنـــه سيكون "أكيفا" أو "إيزابيلا" فوق تلك الأرض أم أسفلها في المستقبل؟

- معك حق، ولكن...

تتنبه حواس "أكيفا" ورفيقه إلى صوت مألوف يأتيهم من بعيد، ويصيح الجمع قائلين (ابتعدوا سريعا.. انبطحوا أرضا.. احتموا بأي شيء)..

إنها قذيفة مدفعية أطاحت بأحد أبراج الحراسة، الذي تناثرت شظاياه في كل مكان. وبدأ بعدها قصف عنيف على ذلك موقعهم أمام مستوطنة (ميروم جولان) قرب تلك الغرام، أو (هار بنتال) كما يسميه اليهود، إلى الغرب من مدينة القنيطرة السورية، وهي آخر بقعة يسيطر عليها الصهاينة بعد اندحارهم أمام القوات العربية. وقد انشقت الأرض عن مئات الدبابات والمدرعات، التي يعدو الجنود إلى جوارها وكأنهم في إحدى معارك العصور الوسطى، يصيحون ويزأرون.. لقد بدأت عملية تحرير الجولان.

تعالت الصيحات في كل مكان مختلطة بهدير محركات الطائرات الصـــاخب، وطلقات الدبابات المدوية. يلوذ جنود الصهاينة بملاجئهم لكي يتحصنوا بهـــا من جراء القصف العربي، ويحاول البعض منهم الاتصال بـــالمواقع الأخـــرى لطلب تعزيزات بدلاً من تلك التي خسروها سريعاً.

- ميروم واحد.. ميروم واحد.. هل تسمعني ؟

- ميروم أربعة، أسمعك. ابدأ الإشارة.

- يتعرض موقعنا لقصف كثيف. لقد تضررت معظم أســـلحتنا، ولم نعـــد نمتلك وسائل دفاعية كافية لصدهم.

- نحن نتعرض للقصف أيضاً، سنتصل بالقيادة من أجلكم، حاولوا الصمود قدر استطاعتكم حتى تصل التعزيزات.

يلقي ضابط اللاسلكي بجهازه أرضاً، ويصيح منفعلاً (كـــاذبون.. كـــاذبون.. سيتركوننا نتعرض للقصف حتى نموت، ولن يكلفوا أنفسهم حتى بدفن جثثنا التي ستتعفن هنا.. كاذبون).

لم يكد الضابط ينهي كلامه حتى نزلت قذيفة على مخبئه ودمرته، فأصبح يردد وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وبصوت وهن (كاذبون.. كاذبون.. مخادعون) ثم يموت.

تبدأ المروحيات بإنزال الجنود العرب بالقرب من الموقع، وقد تحركوا بســـرعة لاقتحامه فور انتهاء المدفعية من قصفه. لقد كانت مهمتهم تتمثل في السيطرة على كل المواقع الإسرائيلية في هضبة الجولان وفي نفس التوقيـــت، حـــتى لا يلتفت موقع لمعاناة موقع آخر.

كان القصف عنيفاً في كل أنحاء الجولان. الطائرات العراقية والمصرية تقصف مستوطنة دان بالقرب من مرج الحولة، وهناك عمليات إنزال بري في صفد بالقرب من مستوطنة جادوت. وبحيرة طبرية مليئة بالزوارق الحربية الصغيرة التي تحمل صواريخ بعيدة المدى، قصفت المعسكرات الإسرائيلية في الجولان. وقوات المشاة الأردنية استولت على كل أراضي الجولان من ناحيتها، وتعمقت حتى اقتربت من "حوا". إن "مجدل شمس" باتت تحت سيطرة مقاتلي الدروز الشجعان. الملاحم القتالية في كل مكان، تل العزازيات، حوا كير زاعورا، عين فيت.. وغيرها.

❁❁❁

كان المشهد مروعاً أمام مستوطنة كتسرين بالجولان، فقد أخذ الجنود يقفزون من المروحيات التي تتحرك في الظلام مع اقترابها من الأرض، ويشكلون مجموعات اقتحام تهدف إلى السيطرة على المستوطنة ومحيطها. أسرعت مجموعة للإجهاز على جنود حراسة المستوطنة الفارين إلى قرية قسرين المهجورة المجاورة لها. وبدأ آخرون في اقتحامها أثناء هروب اليهود الروس منها، وقد أخذوا يهرولون في كل مكان بحثاً عن ملجأ، إلا أن معظمهم تم اعتقالهم أحياء وجمعوا في أماكن آمنة، وذهب آخرون لمطاردة الجنود الذين تحصنوا بمنازل المستوطنة.

إن تخطيط المستوطنة يجعل من تحرك جنود العرب أمرا غاية في الصعوبة، فهم مكشوفين دائماً لأعدائهم، مما أدى بعد عدة محاولات إلى أن يأمرهم قائد المهمة بالانسحاب ووقف كافة التحركات، وأرسال مجموعة استطلاع لاستكشاف الموقع وتحديد النقاط الآمنة لتحركهم.

حينما بدأت مجموعة الاستطلاع التسلل إلى داخل المستوطنة، فوجئت بعدد كبير من عرب الجولان أسرى داخل المنازل التي يتحصن بها جنود العدو، الذين أخذوا يطلقون نيران أسلحتهم بشكل عشوائي وبكثافة، فأصيب بعض أفراد مجموعة الاقتحام بجراح بليغة واستشهاد بعضهم، فلم يكن أمام الجنود العرب إلا اتخاذ نقاط حصينة ثم الاتصال بالقيادة: هناك قناص. سقط أحد الضباط. نطلب الإذن بالانسحاب.

يأتي الصوت من الطرف الآخر، أن انسحبوا. وبات الأمر صعباً. إن نيران العدو كثيفة ومن عدة جهات، وفي نفس الوقت لا يستطيع الجنود الرد حتى لا يصاب أحد الأسرى بسوء.

- ماذا سنفعل يا سيدي ؟

- في ذهني خطة. وسننفذها بمشيئة الله.

يختلي القائد بنفسه قليلاً داخل عربة الاتصال، ثم عاد ليأمر ضباطه بإطلاق قذائف دخان في كل أنحاء المستوطنة من كافة الاتجاهات، وحينما يخرج المتحصنون تطلق القذائف الضوئية حتى يصاب الأعداء بالعمى المؤقت والصمم في وقت اقتحام الجنود العرب للمستوطنة.

وبالفعل تم تنفيذ خطته، فحينما أطلقت قذائف الدخان خرج المتحصنون، الذين فوجئوا بالقذائف الضوئية تنهال عليهم، فأصيبوا بما تم التدبير له، فأصبحوا لا يسمعون الجنود العرب أثناء اقتحامهم للمستوطنة. ولم يروهم أيضا. وقام الجنود العرب بارتداء الأقنعة الواقية ذات العدسات الداكنة المجهزة لتلك العمليات، وسيطروا على معظمهم بدون عنف، فقد كانت تلك القذائف المؤلمة كفيلة بأعدائهم.

(١٥)

المؤتمر

داخل قاعة اجتماعات خاصة بجامعة بيرزيت، أنصت الجميع إلى أحد القادة العسكريين، وهو يشير بكلتا يديه يمينا ويسارا ويخطب في الجموع. وكان الجميع ينظرون إليه إعجابا، وهو يتحرك بينهم بعد أن ترك منبره ويصيح بحماس:

- إن الخوف عظيم في انفلات الأوضاع لو فشلنا، فالسؤال الأكبر هنا، والذي يحتاج إلى إجابة منا جميعا، كيف ستدار الدولة بعد انتهاء الحرب؟ إن القصف الصهيوني الكثيف والعشوائي لا ينتهي ولا يميز. أصبحت البلاد جميعها في حالة دفاع عن النفس.. ولأول مرة في تاريخ فلسطين.. اليهود يدافعون عن أنفسهم من ضرباتنا المؤثرة، ويهاجمون بعنف ويأس، خوفا منا. هي ردة فعلهم التي كنا نتوقعها جيدا. الأمر أصبح أكثر دموية من أي حرب مضت، ولولا سيطرتنا على مخزونهم النووي لأحرقوا المنطقة بمن فيها يأسا. خاصة بعد أن حررنا القدس والخليل وبئر سبع والضفة الغربية وقطاع غزة ورام الله. حقد سنوات طويلة من الصراع العربي الصهيوني، تفجر حينما بدت القوة في أيدي العرب، بعد أن تأكدوا أن الأمر لا يحتاج إلا إلى قرار. قرار واحد يحسم الصراع ويحدد مستقبلنا جميعا في هذا العالم، ويضع لنا أقداما في هذا العالم البغيض. أعلم أن قرار الحرب صعب، ولكن لم يكن هناك مفر من المواجهة، ومهما كانت النتائج، فهي حرب الكرامة العربية.. كرامة الزيتون.. التي...

يميل أحدهم نحو أحد الحضور ويهمس في أذنه:

- إنه يخطب منذ ساعة كاملة. لقد مللت. ألم تمل أنت أيضا ونحن نجلس نفس جلستنا تلك ونسمع خطابات الرؤساء والزعماء العرب منذ أسبوع. لماذا لا نذهب للقتال؟

- اصمت يا إلياس، فإن حديثه يشجيني. لم نسمع خطيبا مثله منذ عقود طويلة، وإنني سعيد بأنني أسمع خطيبا قدسياً يذكرني بالخطباء العرب الثوار أمثال الخطيب المصري "مصطفى كامل"، والخطيب السوري العظيم الدكتور "حبيب إسطفان"، وخطيب ثورة ١٩١٩ المصرية الأب "سرجيوس". إنها الجلسة الختامية، فلا تفقد صبرك.

- أعلم ذلك وأستمتع معك بالفعل يا صلاح الدين، ولكن المجتمع الدولي ينتظر خارج هذه القاعة. يود الجميع أن يعرف من سيكون رئيس جمهورية فلسطين الأول يا رجل.

- لقد تم اختياره بالفعل ولم يتبق إلا إعلان اسمه، وها نحن ننتظر يا إلياس كالجميع.

- كم أنت خبيث يا صديقي. تحاول أن توحي إليَّ بأن الأمر لا يثير شغفك، لولا أنه لا يمكننا الخروج لكنت خرجت، فأنا لا أحتمل الانتظار، وأتشوق لخوض مهمة جديدة معك.

ينظر صلاح الدين إلى إلياس مبتسما، ويتنقل بعينه في أنحاء قاعة المؤتمرات، ليلمح بطرف عينه خارج باب القاعة ذلك الزحام الشديد، هذا الجمع الغفير من رجال الصحافة والمصورين ومراسلي الفضائيات ينتظرون. الجو مفعم

بحماس غير عادي. الجميع يتحدثون. تختلط أصواتهم بأصوات الطائرات الحربية التي تمر كل دقائق فوق مقر الجامعة لتأمينه، وأصوات الضباط الذين يؤمنون كل ركن من أركانها. إن قاعة المؤتمرات تحتوي على أبطال عملية "عين الصقر" الأحياء، تحيطهم صور من دفعوا الثمن من دماءهم، وبعد دقائق سوف يتم اختيار رئيسا مؤقتا للجمهورية الفلسطينية الجديدة من هؤلاء الأبطال.

تستقر نظرة صلاح الدين على سلمى التي تقف بالزي العسكري أمام باب القاعة، وتحيط بها عدسات المصورين من القنوات التليفزيونية العالمية، وهي تدلي ببعض التفاصيل المسموح بها عن عملية (قلب الصقر). وقد انتبهت إليه وهو ينظر إليها فالتقت أعينهما، فتبادره بابتسامة خفيفة رقيقة كلها أمل في غد مشرق، ليعود بعدها صلاح الدين لمتابعة الجلسة الختامية لمؤتمر إعلان الجمهورية الفلسطينية الأولى، ويسأل نفسه: هل الحرب قد انتهت، أم أن هناك بقية ؟!

لعلها أعجبتكم وداعبت أحلامكم في وطن حر

تحيا فلسطين حـــرة مستقلة